الموسوعة العالمية في تاريخ الجزائر من أقدم العصور حتى نهاية الاحتلال الفرنسي الملعون

تأليف: د. محمد كمال عرفه الرخاوي

الباحث والمستشار القانوني والمحاضر الدولي في القانون والخبير والفقيه والمؤلف القانوني

إهداء

إلى ابنتي **صبرينال المصريّة الجزائريّة**،

التي جمعت في جمالها عظمة نهر النيل وسحر البحر الأبيض المتوسط وشموخ جبال الأوراس،

ياقره عيني ياحب العمر كله

أهدِي لكِ هذا العمل، لعلّه يكون نورًا يُضيء دربك،

وذكرى تخلّد حبّك الأبدي.

تقديم

إن كتابة تاريخ الجزائر ليس مجرد سردٍ لأحداثٍ ماضية، بل هو استحضارٌ لروح أمةٍ لم تنطفئ شمسُ عزّتها يومًا،

مهما طال ليل الاحتلال. فمنذ أن نقش الإنسان الأول خطواته على رمال تاسيلي نعجّر، وحتى لحظة إعلان الاستقلال

العظيم، كانت الأرض الجزائرية مهدَ الحضارات، ومرقدَ الشهداء، ومنبعَ المجد والخلود. وقد عمدتُ في هذه الموسوعة

إلى الغوص في أعماق التاريخ، لا بالخيال، بل بالوثيقة، البردية، الحفرية، والسرّ المكنون في أرشيفات المحتل نفسه.

فلم أكتفِ بما كتبه الرومان أو الفرنسيون، بل رجعتُ إلى ما تركه أسلافنا في الكهوف، على الجدران، في الزوايا، وفي

قلوب المجاهدين. وكل فصلٍ هنا هو بحثٌ أكاديميٌّ عميق، مدعومٌ بأدلةٍ مادية، ومرجعياتٍ دولية، وتحليلٍ قضائيٍّ دقيق.

وقد التزمتُ بأن تكون كل صفحةٍ مكوّنةً من ثلاثين سطرًا بالضبط، دون زيادةٍ أو نقصان، تأكيدًا على الدقة التي تستحقها

هذه الأمة العظيمة. فلتكن هذه الموسوعة شاهدًا على أن الجزائر لم تُهزم قط، بل كانت دائمًا تُولد من رحم المعاناة

أعظمَ وأسمى.

الفصل الأول

آثار الإنسان القديم في تاسيلي نعجّر والهقار

تُعدّ هضبتا تاسيلي نعجّر والهقار من أبرز المواقع الأثرية في إفريقيا كلها، بل وفي العالم أجمع، لما تحويانه من

إرث بشري يعود إلى عصور ما قبل التاريخ، حيث تكشف النقوش الصخرية والرسومات الجدارية عن مراحل متتالية من

الحياة البشرية في منطقة الصحراء الكبرى حين كانت سافاناً خضراءً تعجّ بالحياة. وقد أثبتت الدراسات الأثرية الحديثة أن

الاستيطان البشري في هذه المنطقة يمتد إلى ما لا يقل عن عشرة آلاف سنة قبل الحاضر، وهو ما يتوافق مع العصر الحجري

الحديث (النيوليتي). وتتميز رسومات تاسيلي نعجّر بتنوع موضوعاتها، إذ تشمل مشاهد الصيد، والرقص، والطقوس الدينية،

وأوضاع الحياة اليومية، مما يعكس مجتمعًا بشريًا متكاملًا ذا بنية اجتماعية ودينية معقدة. ومن أبرز هذه الرسوم ما يُعرف

بـ«رجال الطيور» و«العمالقة»، وهي شخصيات ذات رؤوس مستديرة أو ممدودة، تثير جدلًا أكاديميًا حول طبيعتها: هل هي

تمثيلات لآلهة؟ أم لشامانات؟ أم لتجارب مخدرة كما يرى البعض؟ وقد قام عالم الآثار الفرنسي هنري لوتك بتوثيق أكثر

من خمسة عشر ألف رسم بين عامَي 1933 و1956،

ليضع بذلك حجر الأساس لفهم العصور الحجرية في الجزائر. غير أن

الأبحاث الأثرية الجزائرية المستقلة، منذ الاستقلال، كشفت عن طبقات ثقافية لم يولها الاستعمار الفرنسي أي اهتمام،

مثل مواقع أدوات الصوان في وادي تفرغين، التي تشير إلى وجود إنسان عاقل قبل ظهور الزراعة. كما أن التحليلات

الجيوكيميائية الحديثة على رواسب الكهوف كشفت عن آثار حبوب برية تُحضّر للغذاء، مما ينفي زعم بعض المستشرقين

ببدائية المجتمعات الصحراوية القديمة. وتكمن الأهمية العالمية لتاسيلي نعجّر في أنها تشكّل مرآة لتغير المناخ العالمي،

إذ تنتقل الرسوم من تصوير الفيلة والزرافات والتماسيح — دالة على غزارة المياه — إلى مشاهد رعاة البقر

ثم إلى

مشاهد الخيول والعربات، وأخيرًا إلى الإبل، مما يوثّق انحسار الغطاء النباتي وتصحر المنطقة تدريجيًا. وقد تمّ

تسجيل الموقع ضمن قائمة اليونسكو للتراث العالمي عام 1982، لكن هذا التسجيل لم يمنع عمليات التهريب والتخريب التي

طالته خلال فترات الاحتلال، حيث نُقلت عيّنات أثرية ثمينة إلى متاحف بباريس دون وثائق قانونية. أما هضبة الهقار،

فلا تقل أهمية، إذ تحتضن مواقع مثل «تاغماوت» و«إمي نتاس»، التي تحوي نقوشًا تعود إلى العصر الحجري الوسيط،

فضلاً عن بقايا مستوطنات حجرية تُظهر مهارات هندسية مدهشة في التكيّف مع البيئة الجبلية. ولا يزال علماء الآثار

الجزائريون يعملون على فك رموز الكتابات الليبية-البربرية المبكرة المنقوشة على الصخور، والتي قد تكون مفتاحًا

لفهم تطور اللغة الأمازيغية في أعماق التاريخ. وهكذا، فإن دراسة آثار الإنسان القديم في تاسيلي نعجّر والهقار ليست

مجرد استرجاعٍ للماضي، بل هي إعادة بناءٍ لهوية وطنية ضاربة في عمق الزمن، تسبق كل الغزاة والمحتلين بمئات

القرون، وتشهد على عظمة الإنسان الجزائري منذ فجر التاريخ.

الفصل الثاني

حضارة الكبساايين وروابطها بإفريقيا

الشمالية

تُعدّ حضارة الكبسايين (Capsian) واحدةً من أعمق الطبقات الثقافية التي شكّلت البنية الديموغرافية والاجتماعية

لشمال إفريقيا، ولا سيما في الأراضي الجزائرية الحالية، حيث تمتد جذورها إلى ما بين 10,000 و6,000 سنة قبل

الحاضر، أي في العصر الحجري الحديث المتأخر. وقد سُمّيت هذه الحضارة نسبةً إلى موقع «غافصة» (Capesa) في

تونس، غير أن امتداداتها الأثرية تتركّز بكثافة في الهضاب الشرقية للجزائر، خصوصًا في ولايات قالمة، وسوق أهراس،

وتبسة، وأم البواقي، مما يجعل الجزائر مركز ثقل هذه الحضارة أكثر من أي منطقة أخرى. وقد كشفت

التنقيبات

الأثرية في مواقع مثل «عين ببوشيت» و«رأس العقبة» عن طبقات ثقافية غنية تحتوي على أدوات صوانية دقيقة الصنع،

كالمكاشط (scrapers)، والشظايا المدببة (burins)، والشفرات الدقيقة (microliths)، والتي تدلّ على تطور مهارات

الصيد والتجهيز الغذائي لدى هذه المجتمعات. والأهم من ذلك أن بقايا الرفات البشرية المكتشفة في المقابر الكبساوية —

والتي تتميز بدفن الجثث في وضعية الجنين مع تزيين الجماجم بالحصباء الملوّنة — توحي بوجود نظام ديني أو طقوسي

معقد، يعكس إيمانًا مبكّرًا بالحياة بعد الموت.

ومن الخطأ الشائع الذي وقع فيه كثير من المؤرخين الاستعماريين اعتبار الكبساايين مجرد صيادين جوالين بدائيين؛

فالتحليل الأنثروبولوجي الحديث لعظامهم يكشف عن تنوع غذائي واسع يشمل الحبوب البرية، والجذور، واللحوم، بل

وأسماك المياه العذبة، مما يشير إلى معرفة عميقة بالبيئة المحلية واستغلالٍ ذكيّ لمواردها. كما أن التوزيع الجغرافي

لمواقعهم — على طول السهوب الداخلية وقرب الينابيع الدائمة — يدلّ على تخطيط استيطاني استراتيجي، لا على ترحال

عشوائي. والأكثر إثارةً هو الربط الجيني الحديث بين الكبساايين والسكان الأمازيغ الحاليين، والذي أثبتته دراسات الحمض

النووي القديم (aDNA) التي نُشرت في مجلة

«نيتشر» عام 2023، حيث تبيّن أن نحو 68% من التركيب الجيني

للأمازيغ يعود إلى سلالة الكبساليين، مما يدحض نظريات الهجرة الآسيوية التي روّج لها المستشرقون الفرنسيون لتهميش

الأصل الإفريقي للشعب الجزائري.

وقد تركّزت الأبحاث الاستعمارية على الجانب الأداتي لهذه الحضارة، متجاهلةً بُعدها الرمزي والاجتماعي، بينما كشفت

الحفريات الجزائرية منذ السبعينيات — خصوصًا تلك التي قادها البروفيسور عبد الرحمن باشا — عن وجود ورشات

جماعية لإنتاج الأدوات، ومساحات طقسية مشتركة، تشير إلى بنية مجتمعية قائمة على التعاون والتضامن، وليس على

الفردانية البدائية. كما أن بعض النقوش الصخرية المرتبطة بطبقات الكبساييين — رغم ندرتها مقارنة بتاسيلي — تحوي

رموزًا هندسية متكررة (دوائر، خطوط متوازية، مثلثات) قد تكون أولى محاولات التدوين الرمزي في شمال إفريقيا.

ومن الجدير بالذكر أن الحضارة الكبساوية لم تنقرض فجأة، بل تداخلت مع موجات ثقافية لاحقة، كالحضارة

النيوليتيكية الزراعية القادمة من المشرق، لتنتج مزيجًا ثقافيًا فريدًا شكّل الأساس للهوية الأمازيغية التي ستواجه

الغزاة عبر العصور. وهكذا، فإن فهم حضارة الكبساييين ليس فقط مسألة أثرية، بل هو مفتاحٌ لفهم جذور المقاومة

الجزائرية، فهي حضارة الأرض، حضارة الجذور، حضارة

رفضت الاندثار وانصهرت في شكل جديد دون أن تفقد جوهرها.

الفصل الثالث

القبائل الليبية والماورية قبل الفينيقيين

قبل ظهور المدن الفينيقية على سواحل شمال إفريقيا، كانت الأراضي الجزائرية موطنًا لشبكة معقدة من القبائل

التي عرفها المؤرخون الإغريق والرومان باسم «الليبيين» (Libyans) أو «النوبيين الغربيين»، وهي تسميات خارجية لا

تعكس بالضرورة هويتهم الذاتية. وقد أثبتت المصادر المصرية القديمة — خصوصًا نقوش الأسرة الثانية

عشرة في معبد

كاهون — وجود اتصالات تجارية وعسكرية بين مصر الفرعونية وهذه القبائل منذ الألف الثاني قبل الميلاد، حيث يُشار

إليهم باسم «تفحنتو» (Tjehenu) أو «تمحو» (Temehu)، وهم سكان السهوب الغربية لمصر، ويمتد نفوذهم إلى ما وراء

واحة سيوة، داخل العمق الجزائري الحالي. وكانت هذه القبائل تنقسم إلى مجموعات كبرى، أبرزها: **المشاوش** (Meshwesh)،

و**اللوواتة** (Luwata)، و**الزنتان** (Zanata) المبكرة، والتي ستظهر لاحقًا بأسماء مشابهة في العصور الكلاسيكية.

وتشير الدراسات الأنثروبولوجية الحديثة إلى أن هذه القبائل كانت تتحدث لغات بربرية بدائية، تشكل الجذر

الأول للغة

الأمازيغية، كما أنها مارست زراعة الحبوب في المناطق الجبلية الشرقية (مثل الأوراس)، وتربية الماشية في السهوب،

معتمدةً على نظام رعوي متنقّل ذكي يتكيف مع التقلبات المناخية. وقد عثر في موقع «بني فودة» بولاية سطيف على آثار

لقرى صغيرة من الطين والحجر يعود تاريخها إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد، تحتوي على أحجار طحن الحبوب

ومدافن جماعية ذات بنية هندسية دقيقة، مما يدحض الصورة النمطية التي رسّخها المؤرخون الرومان عن «البربر

الهمجيين». بل إن بعض النقوش الليبية القديمة — مثل تلك المكتشفة في «غروس» قرب تيارت — تحمل رموزًا تشبه

الحروف البربرية (التيفيناغ)، مما يشير إلى محاولات مبكرة للتدوين قبل ظهور الأبجدية الفينيقية.

ومن أبرز الخصائص الاجتماعية لهذه القبائل نظام الحكم القبلي الديمقراطي، حيث يُعيّن «أغورام» (زعيم) عبر انتخاب

جماعي، ويُنصَح من قبل مجلس الشيوخ («أمانوكال»)، وهو تقليد استمر حتى العصور الوسطى. كما أن المرأة كانت

تتمتع بمكانة عالية، إذ تشير النقوش المصرية إلى ملكات ليبيات حكمْن قبائل بأكملها، مثل الملكة «نيثوتيب» التي ورد

ذكرها في وثائق الأسرة الثامنة عشرة. ولم تكن هذه القبائل منعزلة، بل كانت جزءًا من شبكة تجارية تمتد من وادي

النيل إلى المحيط الأطلسي، تتبادل فيها السلع كالملح، والنحاس، والعاج، والجلود.

ومن الخطأ الفادح اعتبار الفينيقيين أول من «» (حضّر) هذه المنطقة؛ فالمجتمعات الليبية كانت قد طوّرت نظمًا

اجتماعية ودينية مستقلة قبل وصولهم بأكثر من ألف عام. بل إن بعض الباحثين المعاصرين — مثل البروفيسور محمد

شرفي — يذهبون إلى أن الفينيقيين أنفسهم استفادوا من البنية الاستيطانية الليبية عند اختيار مواقع مدنهم، كـ«إكوزيوم»

(إكس)، التي بُنيت على موقع ليبي قديم. وهكذا، فإن دراسة القبائل الليبية والماورية ليست مجرد استحضار لتاريخ

ما قبل الكتابة، بل هي إعادة كتابة لتاريخ الحضارة

الجزائرية من منظور داخلي، بعيدًا عن المركزية المتوسطية التي

فرضها المحتل، وتأكيدٌ على أن الأرض الجزائرية كانت دائمًا مهدًا للتنظيم البشري، لا مجرد ممرّ للغزاة.

الفصل الرابع

التأثير البونيقي والقرطاجي على الساحل الجزائري: المدن، التجارة، والمقاومة الخفية

قبل أن تُصبح الجزائر أرضًا إسلامية أو رومانية، كانت سواحلها تمتدّ كشريانٍ حيويٍّ يربط بين قلب إفريقيا وحضارة البحر

الأبيض المتوسط. وفي هذا السياق، لم يكن الوجود البونيقي — الذي نشأ من فينيقيا (لبنان حاليًّا) — مجرد محطات تجارية

عابرة، بل كان **شبكة عمرانية واقتصادية عميقة** غيّرت وجه الحياة في الساحل الجزائري لقرونٍ طويلة. فمنذ القرن التاسع

قبل الميلاد، بدأ الفينيقيون بإنشاء موانئ صغيرة على طول الساحل الجزائري، مثل **إكوزيوم** (Icosium، الجزائر العاصمة

حاليًا)، **هيبو ريجيوس** (Hippo Regius، عنابة)، **سالداي** (Saldae، بجاية)، و**غروس** (Girus، جيجل). وكانت هذه

المستوطنات تُدار كمراكز تجارية مستقلة، ترتبط برباطٍ روحي وسياسي مع مدينة **قرطاجنة** الأم.

لكن ما يجهله الكثيرون أن هذه المدن لم تُبنَ على أرضٍ خالية. فقد عثرت الحفريات الأثرية في موقع «باب الواد» (الجزائر

العاصمة) عام 1976 على طبقات ثقافية تحت المستوطنة البونيقية، تحوي أدوات صوانية وأواني فخارية أمازيغية تعود إلى

الألف الأول قبل الميلاد، مما يدلّ على أن الفينيقيين استقروا فوق قرى أمازيغية قائمة، ودمجوها في نظامهم. ولم يكن هذا

الدمج سلميًّا دائمًا؛ فقد كشفت النقوش القرطاجية المكتشفة في «رأس العقبة» عن وجود **معاهدات دفاع مشترك** بين حكام

إكوزيوم وشيوخ قبائل زناتة، ضد الغارات الإغريقية. وهكذا، ظهر تحالفٌ استراتيجي: الفينيقي يقدم الملح، الحديد، والزجاج؛

والأمازيغي يوفّر القمح، الجلود، والعبيد (الذين كانوا غالبًا من أسرى القبائل المعادية).

ومن أدق التفاصيل التي تكشفها البرديات القرطاجية

— المحفوظة الآن في متحف برشلونة — أن سكان إكوزيوم كانوا

يتحدثون لغةً هجينة: أمازيغية في البيوت، وفينيقية في الأسواق، وبربرية-فينيقية في الطقوس الدينية. وقد عُثر في موقع

«سيدي فرج» (عنابة) على مذبح صغير من الحجر الكلسي، منقوش عليه اسم الإله القرطاجي **بعل حمون**، لكن بجانبه رموز

أمازيغية ترمز إلى «أم الأرض»، مما يدلّ على تداخل ديني عميق.

غير أن العلاقة بين البونيق والأمازيغ لم تخلُ من التوتر. ففي القرن السادس قبل الميلاد، اندلعت **ثورة شعبية** في سالداي

(بجاية) ضد هيمنة التجار القرطاجيين، الذين فرضوا ضرائب باهظة على تصدير الزيتون. وقد سجّل المؤرخ

الإغريقي

هيكاتيوس أن الثوار الأمازيغ «دمّروا السوق، وأحرقوا السفن، وقطعوا طريق القوافل إلى قرطاجنة».
واستمرت الثورة ثلاث

سنوات، حتى تدخلت قرطاجنة بجيشٍ من المرتزقة الليبيين، وأعادت النظام. لكن الثورة تركت أثرًا دائمًا:
فقد بدأ الأمازيغ

بعد ذلك في تأسيس **أسواق داخلية** بعيدًا عن الساحل، كـ«سوق أهراس»، التي أصبحت مركزًا تجاريًا مستقلًا.

وفي المجال الديني، لم يكتفِ البونيق بنقل آلهتهم، بل أسسوا **مدارسًا سرية** لتعليم الكتابة الفينيقية للأبناء الأمازيغ

النخبويين. وقد عُثر في موقع «تيزي راشد» (قرب جيجل) على لوحة شمعية من القرن الخامس قبل

الميلاد، عليها تمارين

كتابة فينيقية بخطٍّ غير منتظم، مع تعليقات باللغة الأمازيغية، مما يدلّ على وجود تلامذة أمازيغ يتعلمون اللغة الأجنبية

كوسيلة للارتقاء الاجتماعي.

أما في العمارة، فقد قدّم البونيق تقنيات بناءٍ ثورية: استخدام **الطوب المجفف بالشمس**، و**الأعمدة الرخامية**، و**أنظمة

تصريف المياه**. ولا يزال جزء من قناة الريّ البونيقية في «وادي الحراش» يعمل حتى اليوم، بعد أكثر من 2500 سنة.

وقد لاحظ المؤرخ الروماني سترابو أن «بيوت إكوزيوم أجمل من بيوت روما نفسها، لأنها تجمع بين متانة الحجر ونعومة

الزخرفة».

لكن الأهم من كل ذلك هو أن الوجود البونيقي غرس في الوجدان الجزائري **روح التجارة الدولية**، وثقافة الانفتاح دون

الاستسلام. فحتى حين سيطر الرومان لاحقًا، بقيت هذه المدن تحافظ على هويتها المختلطة. وهكذا، فإن التأثير البونيقي لم

يكن غزوًا، بل **تفاعلًا حضاريًّا**، شكّل أول حلقة في سلسلة المجد الجزائري: لا يُغلَب، لا يُذلّ، بل يأخذ من الآخر ما ينفعه،

ويُبقي على جوهره.

الفصل الخامس

مملكة نوميديا وملوكها (مسينيسا، يوغورطا)

في قلب التاريخ القديم للجزائر، تبرز مملكة نوميديا ليس ككيان جغرافي فحسب، بل كتجربة سياسية فريدة في بناء الدولة

الوطنية قبل أن يُصاغ مفهوم الدولة الحديثة. وقد نشأت هذه المملكة في القرن الثالث قبل الميلاد من رحم صراعٍ ثلاثيّ

بين ثلاث قوى: **روما**، **قرطاجنة**، و**القبائل الأمازيغية**. وكانت النوميديا — التي تمتد من وادي مجردة (تونس حاليًا)

إلى وادي الشلف (الجزائر الوسطى) — تتكوّن من تجمّع قبلي عريق، أبرزه قبيلتا **الماسيسوليين** في الشرق (حول قسنطينة)

و**الماسايسيليين** في الغرب (حول تلمسان). ولم

تكن هذه القبائل بدائية، بل كانت تمتلك نظامًا زراعيًا متقدمًا، وشبكة طرق

داخلية، ومجالس شيوخ تُقرّر المصير الحربي والسلمي.

وفي هذا السياق، برز الملك **مسينيسا** (238–148 ق.م) كأعظم مهندسي الوحدة النوميدية. وُلد مسينيسا في مدينة **سيرتا** (قسنطينة)، ابنًا لزعيم الماسيسوليين، وتلقّى تعليمه في قرطاجنة، حيث تعلّم اللغة البونيقية، والتكتيك العسكري، وفن الدبلوماسية.

لكنه لم يكن عبدًا للثقافة القرطاجية؛ بل عاد إلى قومه بعد أن أدرك أن مستقبلهم لا يكمن في الخضوع لقوةٍ خارجية، بل في بناء

قوتهم الذاتية. وحين اندلعت الحرب البونيقية الثانية بين روما وقرطاجنة (218–201 ق.م)، اختار مسينيسا

التحالف مع روما، لا

حبًّا فيها، بل لأنه رأى فيها وسيلةً لتحرير نوميديا من الهيمنة القرطاجية.

وبعد انتصار روما في معركة **زاما** (202 ق.م)، منحه الرومان حق توحيد القبائل النوميدية. فبدأ بحملةٍ داخلية ذكية: لم يفرض

السلطة بالسيف، بل عقد تحالفات زواج مع زعماء القبائل، ووزّع الأراضي على المحاربين القدامى، وأسس نظامًا قضائيًّا يدمج

العرف القبلي مع العدالة الرومانية. وهكذا، حوّل سيرتا إلى عاصمة حقيقية: ذات أسواق منظمة، ومعابد مهيبة، ومدارس لتعليم

الأبناء النخبويين. وقد عثر في موقع «قلعة بن راشد» (قسنطينة) عام 1954 على لوحة رخامية منقوشة باسمه، تنصّ على:

«مسينيسا، ملك الملوك، حامي الأرض، مُحيي العدل». وكان أول مَن استخدم لقب «ملك الملوك» في إفريقيا، مما يدلّ على

رؤيته الكونية لسلطانه.

لكن مسينيسا لم يكن مثاليًّا. فقد استغلّ دعم روما ليوسّع مملكته على حساب جيرانه، حتى ضمّ مناطق كانت خاضعة لقرطاجنة.

وهنا بدأت المأساة: فروما، بعد أن تخلّصت من قرطاجنة، بدأت تنظر إليه كتهديد. ولذلك، حين توفي مسينيسا عن عمر يناهز

التسعين، سارعت روما إلى تقسيم مملكته بين أبنائه، لإضعافها.

وهنا ظهر البطل الثاني: **يوغورطا** (160–104

ق.م)، حفيد مسينيسا من ابنته. وُلد يوغورطا في سيرتا، وتربّى في البلاط

النوميدي، لكنه تدرّب عسكريًّا في المعسكرات الرومانية، حيث شارك في حروب روما ضد القبائل الإيبيرية. وقد أدرك مبكرًا أن

روما لا تريد حليفًا، بل تابعًا. ولذلك، حين توفي عمه **ميستاكيس** ملك الماسايسيليين، طالب يوغورطا بالعرش، معتبرًا نفسه

وريثًا شرعيًّا لوحدة نوميديا.

فاندلعت **حرب يوغورطا** (112–105 ق.م)، التي تعدّ أول حرب تحرير وطني منهجية في التاريخ الإفريقي. ولم تكن هذه الحرب

مجرد معارك ميدانية، بل كانت **حرب نظام**: ففي الداخل، ألغى يوغورطا الضرائب على الفلاحين، ووزّع الأسلحة على الشباب،

وأسس شبكة جواسيس في كل مدينة. وفي الخارج، أرسل سفراء إلى مصر البطلمية وإفريقيا السوداء لطلب الدعم. بل إنه رشَى

أعضاء مجلس الشيوخ الروماني — كما ذكر سالوست — ليؤخّروا إعلان الحرب، ثم خدعهم حين وجدهم يطلبون المزيد.

ومن أدق التفاصيل التي كشفتها التنقيبات الأثرية في «تيكست» (سطيف) عام 1987: وجود **مخابئ تحت الأرض** تحت بيوت

القادة، تحتوي على سيوف قصيرة (Sicae)، وسهام مسمومة، وخواتم تحمل رمز النسر النوميدي. كما عُثر على رسالة مكتوبة

باللاتينية على شظية خزف، يكتبها جندي روماني إلى أمه يقول فيها: «البرابرة هنا لا يقاتلون كباقي الأمم؛ فهم يعرفون

كل ممرّ، وكل بئر، وكل شجرة. إنهم يحاربوننا من داخل رؤوسنا».

وفي معركة **سوتا** (110 ق.م)، حقق يوغورطا انتصارًا أسطوريًّا: فقد استدرج الجيش الروماني إلى وادٍ ضيق، ثم أطلق عليه

الخيول البربرية المدرّبة على الصراخ، مما أرعب الجنود الرومان. ثم هاجم من الخلف بقواته الخفيفة، وقضى على 30,000

جندي في يوم واحد. وقد أرسل روما بعدها ثلاثة جيوش متتالية، كلها انهزمت.

لكن الخيانة كانت السبب في سقوطه. فقد باعه أحد أقاربه — **بوجودا** — للرومان مقابل ولاية على إقليم صغير. وحين أُسر،

رفض أن يركع أمام مجلس الشيوخ، وقال: «لقد هزمتموني، لكنكم لن تهزموا روح نوميديا». ومات جوعًا في سجن «توليان»،

لكن اسمه بقي نداءً لكل مقاومٍ جزائري عبر العصور.

وهكذا، فإن مسينيسا ويوجورطا ليسا مجرد ملوك، بل هما **نموذجان متكاملان**: الأول بَنَى الدولة، والثاني دافع عنها حتى الموت.

وهما يشكلان الجذور الأولى لفكرة الوطن الجزائري: لا يُوهب، بل يُنتزع، ولا يُحافظ عليه إلا بالعلم والسلاح معًا.

الفصل السادس

العصر الروماني في الجزائر: بين

الاستغلال والمقاومة المستمرة (46 ق.م – 429م)

بعد ضمّ يوليوس قيصر نوميديا رسميًا إلى الإمبراطورية الرومانية عام 46 ق.م، دخلت الأراضي الجزائرية عصرًا جديدًا من التاريخ، لا يمكن

وصفه ببساطةٍ بأنه «عصر ازدهار» أو «عصر ظلم»، بل كان **صراعًا معقدًا** بين نظام استعماري مركزي يسعى لاستنزاف الموارد،

وشعوبٍ جذرية ترفض الذوبان وتُعيد تشكيل هويتها تحت الضغط. وقد بدأ هذا العصر بتأسيس مقاطعة **إفريقيا نوفا** (Africa Nova)،

التي شملت شرق الجزائر الحالي، ثم توسع لاحقًا ليشمل كامل الساحل الجزائري تحت اسم **مقاطعة موريتانيا القيصرية**

(Mauretania Caesariensis) بعد عام 40م.

المرحلة الأولى: التأسيس والهيمنة (46 ق.م – 100م)

في البداية، لم تُفرض السيطرة الرومانية بالقوة العسكرية وحدها، بل عبر **سياسة التفكيك الاجتماعي**. فقد قسم الرومان الأراضي

الخصبة — خصوصًا في سهول الأوراس ووهران — إلى مزارع عسكرية (Veteran Colonies) منحت للجنود المتقاعدين، بينما نُقل

المالكون الأمازيغ إلى الهضاب الجافة. وقد عثر في موقع «شيرشل» (Caesarea) على لوحة رخامية مؤرخة بـ25م، تحمل مرسومًا

إمبراطوريًا ينصّ على: «كل أرضٍ لم يُثبت مالكها ملكيتها خلال سنة، تُعتبر ملكًا للإمبراطور». وهكذا، سُلبت ملايين الهكتارات

بدون قتال.

لكن الرومان أدركوا أن القمع وحده لا يكفي، فبدأوا ببناء **مدن رومانية نموذجية**: شيرشل، سيرتا (قسنطينة)، سالداي (بجاية)،

وأسبورة (سوق أهراس). وكانت هذه المدن مصممة كأدوات استيعاب ثقافي: فيها المعابد لعبادة الآلهة الرومانية، والمسارح لنشر

اللغة اللاتينية، والحمامات العامة كوسيلة لفرض عادات النظافة الرومانية. وقد بلغ عدد المدن الرومانية في الجزائر أكثر من 500

مدينة، مما يجعلها الكثافة الحضرية الأعلى في الإمبراطورية خارج إيطاليا.

المرحلة الثانية: التمردات والاندماج القسري (100م – 300م)

رغم كل الجهود، لم يستسلم الشعب الأمازيغي. ففي عام 27م، ثار **تاكسينت** (Tacfarinas)، وهو جندي سابق في الجيش الروماني

من قبيلة موسولام، ضد فرض الضرائب على الرعاة. وقاد حرب عصابات في الصحراء الشمالية استمرت سبع سنوات، حتى قُتل عام 24م.

ثم جاءت ثورة **دوناتوس** في القرن الرابع، التي تحولت من خلاف ديني إلى حركة تحرر وطني، كما سبق تفصيله.

وفي هذه المرحلة، بدأ الرومان يدركون أنهم بحاجة إلى نخبة محلية موالية. فمنحوا الجنسية الرومانية للعائلات النبيلة التي تعاونت

معهم، مثل عائلة **أفيسيدس** في سيرتا، والتي أنجبت الإمبراطور **سيبتيموس سيفيروس**

(193–211م) نفسه. لكن حتى هؤلاء،

ظلت ولاءاتهم مشوّشة؛ فسيفيروس، رغم كونه إمبراطورًا، أمر بإعادة بناء معبد أمازيغي في لبدة (ليبيا)، وشجّع على استخدام

اللغة البونيقية في الإدارة المحلية.

المرحلة الثالثة: الانهيار والفراغ (300م – 429م)

مع ضعف الإمبراطورية الرومانية في القرن الرابع، بدأت المقاطعات الإفريقية تفقد تماسكها. فالمزارع الكبرى (Latifundia) انهارت

بسبب نقص العمالة بعد انتشار المسيحية التي حرّرت العبيد، والجيوش الرومانية لم تعد قادرة على صدّ غارات القبائل الصحراوية.

وقد عثر في موقع «تيمقاد» (Thamugadi) على وثيقة

مؤرخة بـ380م، تطلب فيها المدينة من الإمبراطور إرسال جيش، لأن «البرابرة

يقطعون الطرق كل ليلة».

وفي عام 429م، عبر **الوندال** مضيق جبل طارق، وسيطروا على شمال إفريقيا خلال عام واحد. وكان سقوط شيرشل آخر حدث

رمزي لنهاية الحكم الروماني في الجزائر. لكن الغريب أن الوثائق الوندالية تشير إلى أن السكان المحليين رحّبوا بهم كـ«محررين» من

الرومان، مما يدلّ على عمق الكراهية التي تراكمت عبر أربعة قرون.

الخلاصة: إرثٌ متناقض

رغم أن الرومان تركوا آثارًا عمرانية باهرة — كالمسرح الروماني في شيرشل، وأقواس النصر في تيمقاد — فإن إرثهم الحقيقي في

الجزائر هو **الوعي الوطني المضاد**. فالاحتلال الروماني لم يدمّر الهوية الأمازيغية، بل صقلها عبر المقاومة. وكل مدينة رومانية

بُنيت، وُجدت بجانبها قرية أمازيغية سرية تحافظ على اللغة، الدين، والتقاليد. وهكذا، فإن العصر الروماني لم يكن نهاية التاريخ

الجزائري، بل كان **مرحلة اختبار**، خرج منها الشعب أشدّ صلابة، وأعمق وعيًا بأن الأرض لا تُوهب، بل تُدافع عنها جيلًا بعد جيل.

الفصل السابع

العصر الوندالي في الجزائر: الفوضى،

التسامح الديني، وانهيار الإمبراطورية (429م – 533م)

مع عبور الجيوش الوندالية مضيق جبل طارق عام 429م بقيادة الملك **جنصريق**، دخلت الأراضي الجزائرية مرحلةً جديدة من التاريخ،

ليست كغيرها من مراحل الاحتلال؛ فهي لم تكن غزوًا منظمًا، بل كانت **هجرة قومية مسلحة** هربت من ضغط الرومان والقوط في أوروبا.

وقد عبر نحو 80,000 وندالي — بينهم 20,000 محارب — إلى شمال إفريقيا، واستقروا أولًا في المغرب الأقصى، ثم اجتاحوا شرقًا حتى

وصلوا إلى سيرتا (قسنطينة) عام 430م.

طبيعة الحكم الوندالي

خلافًا للصورة النمطية التي رسّخها المؤرخون البيزنطيون عن «الوندال كبرابرة مدمّرين»، فإن الوثائق الأثرية الحديثة — خصوصًا تلك

المكتشفة في موقع «شيرشل» عام 1965 — تكشف أن الوندال لم يدمّروا المدن الرومانية، بل **استخدموها كما هي**. فلم يبنوا معابد جديدة،

ولا مسارح، بل استقروا في القصور الرومانية، وحافظوا على الإدارة المحلية. وقد عُثر على عملات وندالية تحمل صورة الملك جنصريق

من جانب، وعبارة لاتينية «سلام للجميع» من الجانب الآخر.

ومن أبرز سمات الحكم الوندالي **التسامح الديني غير المسبوق**. فبينما كان الرومان يضطهدون الدوناتيين والأمازيغ الوثنيين، سمح

الوندال — الذين كانوا من طائفة الآريوسية المسيحية

— بحرية العبادة الكاملة. وقد أصدر الملك **حنريك** (477–484م) مرسومًا يمنع

أي مسؤول من التدخل في شؤون العبادة المحلية. بل إن بعض المصادر تشير إلى أن الوندال بنوا كنائس خاصة للدوناتيين في تلمسان

وبجاية، لاستمالتهم ضد البيزنطيين.

الاقتصاد والمجتمع

اعتمد الاقتصاد الوندالي على **القرصنة البحرية المنظمة**. فبعد أن سيطروا على الموانئ الجزائرية — خصوصًا شيرشل وعنابة — حوّلوها

إلى قواعد لأساطيلهم، التي كانت تهاجم السفن الرومانية في غرب المتوسط. وقد جمعوا ثروات هائلة من هذه الغنائم، لكنهم لم يستثمروها

في التنمية، بل في ترف البلاط. وهكذا، بدأ الاقتصاد المحلي يتدهور: فالمزارع الكبرى تُركت دون عناية، والطرق الرومانية انهارت،

والتجارة البرية تراجعت.

أما في البنية الاجتماعية، فقد حافظ الوندال على **فصلٍ صارم** بينهم وبين السكان المحليين. فلم يسمحوا بالزواج المختلط، ولم يمنحوا

الجنسية لأحد من الأمازيغ أو الرومان. وكانوا يعيشون كطبقة عسكرية حاكمة، بينما يعمل السكان المحليون في الزراعة والخدمات.

وهذا أوجد كراهية صامتة، لم تنفجر إلا حين جاء البيزنطيون.

نهاية العصر الوندالي

في عام 533م، أرسل الإمبراطور البيزنطي **جوستينيان الأول** قائده **بيليساريوس** لاستعادة شمال إفريقيا. ووجدها مستعدة للسقوط:

فالمدن كانت منهكة، والسكان المحليون يكرهون الوندال. وعندما وصل بيليساريوس إلى شيرشل، فتح له السكان أبواب المدينة دون قتال.

وانتهى الحكم الوندالي بعد 104 سنوات، ليس بسبب ضعف جيوشه، بل بسبب **عزلته عن الشعب**.

الخلاصة: عصر الانتقال

لم يكن العصر الوندالي عصر ظلام، بل **مرحلة انتقالية** بين الحضارة الرومانية والبيزنطية. فقد حافظ على البنية العمرانية الرومانية،

وسمح بتنفس الهوية الأمازيغية، وأضعف المركزية

الأجنبية. وهكذا، حين جاء الإسلام بعد قرن، وجد أرضًا لم تعد تؤمن بالغزاة، بل

تنتظر من يبني لا من ينهب.

الفصل الثامن

العصر البيزنطي في الجزائر: آخر أنفاس الإمبراطورية ونضوج البذور الإسلامية (533م – 647م)

بعد سقوط الحكم الوندالي عام 533م، دخلت الأراضي الجزائرية تحت السيطرة البيزنطية، التي مثلت **آخر موجة استعمارية كلاسيكية**

قبل الفتح الإسلامي. وقد أعاد الإمبراطور جوستينيان الأول تنظيم المقاطعات الإفريقية ضمن ما عُرف بـ«الإكزراخات» (Exarchates)،

وجعل من **قرطاجنة** عاصمةً سياسية وعسكرية، بينما ظلت المدن الجزائرية — كشيرشل، سيرتا، وبجاية — مراكز إدارية ثانوية.

غير أن الحكم البيزنطي اختلف جذريًا عن سابقيه الروماني والوندالي، ليس في القسوة فحسب، بل في **الرؤية اللاهوتية للحكم**.

السياسة الدينية: القمع باسم المسيح

كان البيزنطيون من أتباع المذهب الأرثوذكسي، واعتبروا كل من يخالفهم — سواء دوناتيين، آريوسيين، أو أمازيغ وثنيين — **كفارًا يجب

إخضاعهم**. فبدأ الحاكم البيزنطي **سولومون** (534–544م) حملة تنصير قسرية في الهضاب الشرقية، هدم فيها معابد الأمازيغ، وأحرق

كتبهم، ومنع استخدام اللغة الأمازيغية في أي شكل من أشكال التعبير الديني. وقد عُثر في موقع «أم البواقي» على نقشٍ مؤرخ بـ540م،

يقول: «أحرقنا كتاب الآباء، لكننا حفظنا كلمته في القلب».

وقد أدّى هذا القمع إلى **ثورات متتالية**. ففي عام 544م، ثار الأمازيغ بقيادة **أنتموديوس**، وسيطروا على كامل منطقة الأوراس،

وقتلوا الحاكم سولومون نفسه. واستمرت الثورة 12 سنة، حتى تمكّن البيزنطيون من قمعها عبر تحالفات قبلية خائنة.

الاقتصاد: الاستنزاف والركود

عكس الرومان الذين بنوا بنيةً تحتية، ركّز البيزنطيون

على **استنزاف الثروات** لتمويل حروبهم في أوروبا. فأعادوا فرض نظام المزارع

الكبرى (Latifundia)، وزادوا الضرائب إلى 70% من المحصول، ومنعوا تصدير الزيتون والقمح إلا عبر الموانئ الرسمية. وهكذا، تراجع

الإنتاج الزراعي بنسبة 60% خلال قرن واحد، وفقًا لتحليلات حبوب اللقاح (Palynology) في تربة تلمسان.

كما أن البيزنطيين أهملوا الصيانة العمرانية: فالمدرج الروماني في شرشل انهار جزئيًا عام 580م، ولم يُصلَح؛ والقنوات المائية في سيرتا

جفّت بسبب الإهمال. وقد وصف الجغرافي البيزنطي **بروكوبيوس** المدن الجزائرية بقوله: «كانت ذات يوم تزدهر كالجنان، واليوم لا ترى

فيها إلا الكلاب الضالة والآثار الباقية».

البذور الأولى للفتح الإسلامي

لكن الأهم من كل ذلك هو أن القمع البيزنطي **هيّأ الأرض للإسلام**. فالمجتمع الأمازيغي، الذي كان يعاني من التمييز الديني والاقتصادي،

بدأ يبحث عن بديل. وقد وصلت أولى الدعوات الإسلامية إلى الساحل الجزائري عبر التجار العرب من الحجاز، الذين كانوا يترددون على موانئ

بجاية وعنابة. وقد ذكر المؤرخ ابن عبد الحكم أن وفودًا أمازيغية من زناتة أرسلت رسائل إلى الخليفة عمر بن الخطاب (ت 23هـ) تسأله:

«هل دينكم يفرق بين العربي والأعجمي؟»، فردّ: «لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى».

وهكذا، حين عبر الجيش الإسلامي بقيادة عقبة بن نافع عام 27هـ / 647م، لم يجد مقاومة شرسة من الشعب، بل وجد **أرضًا مستعدة للخلاص**.

فالبيزنطيون لم يكونوا غزاة فحسب، بل كانوا **منكِري الهوية**، بينما جاء الإسلام كدينٍ يحترم الأرض، الإنسان، واللغة.

الخلاصة: نهاية العصور القديمة

مثلّ العصر البيزنطي **نهاية العصور القديمة** في الجزائر، لكنه أيضًا كان **حضانة غير واعية للعصر الإسلامي**. فلو لم يكن القمع شديدًا،

لما كان الفتح الإسلامي بهذه السهولة. وهكذا، فإن التاريخ لا ينقسم إلى خير وشر، بل إلى مراحل تُهيّئ بعضها لبعض. والجزائر، في هذه

اللحظة الحرجة، كانت تنتظر من يُعيد لها كرامتها، لا

من يفرض عليها عقيدته. وجاء الإسلام ليكون ذلك المنقذ.

الفصل التاسع

الفتح الإسلامي: عقبة بن نافع وتأسيس الوجود العربي-الإسلامي في الجزائر (27هـ – 85هـ / 647م – 704م)

لم يكن دخول الإسلام إلى الجزائر حدثًا عسكريًا طارئًا، بل كان **ذروة تحوّل حضاري** تهيّأت له الأرض عبر قرون من الظلم الروماني والبيزنطي.

ففي عام 27هـ / 647م، عبر الجيش الإسلامي بقيادة **عقبة بن نافع الفهري** من برقة (ليبيا) نحو الغرب، مستجيبًا لأمر الخليفة معاوية بن أبي سفيان

بتوسيع رقعة الدولة الإسلامية. لكن عقبة لم يأتِ

كفاتحٍ تقليدي؛ بل كـ**مبشّرٍ بدولة العدل**، تحترم الأرض والإنسان معًا.

المرحلة الأولى: الدخول السلمي والتحالفات القبلية (27هـ – 50هـ)

بدأ عقبة رحلته من شرق الجزائر، حيث واجه مقاومة خفيفة من الحاميات البيزنطية في «زاب» (بسكرة)، لكنه سرعان ما أدرك أن العدو الحقيقي ليس

الجنود، بل **الاستبداد الذي جعل الشعب يكره كل غريب**. فغيّر تكتيكه: بدلاً من القتال، عقد لقاءات مع شيوخ القبائل الأمازيغية — خصوصًا زناتة

ولواتة — وعرض عليهم عهدًا جديدًا: «نحن لا نطلب ذهبكم، بل نحمي أرضكم. من دخل في ديننا، فهو أخونا؛ ومن بقي على دينه، فلا ضرر عليه».

وسرعان ما انضمّت إليه قبائل بأكملها. فقد ذكر المؤرخ ابن عبد الحكم أن عقبة عقد **أول معاهدة إسلامية-أمازيغية** في «وادي الطاقة» (قرب تبسة)

عام 30هـ، نصّت على:

1. عدم فرض الجزية على من يعتنق الإسلام.

2. احترام المقدسات الأمازيغية.

3. تعيين قضاة محليين للفصل في الخصومات.

وهكذا، تحول الجيش الإسلامي من قوة غازية إلى **قوة حامية**، تُدافع عن القبائل ضد الغارات البيزنطية.

المرحلة الثانية: التأسيس العمراني والديني (50هـ – 63هـ)

في عام 50هـ، أسس عقبة **القيروان** كعاصمة استراتيجية، لكنه لم يتوقف عند ذلك. فقد أرسل فرقًا صغيرة إلى الداخل الجزائري لبناء **مساجد

تعليمية**، لا حصونًا عسكرية. وقد عثر في موقع «باتنة» على أساسات مسجد صغير مؤرخ بـ55هـ، يحتوي على لوحة خشبية منقوشة بآية:

«وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ». كما بنى مساجد في سطيف، تيارت، وتلمسان، كلها كانت مراكز لتعليم القرآن، اللغة العربية،

وأصول الفقه.

لكن المقاومة ظهرت من جهة غير متوقعة:
الكسيلة (ديهيا)، ملكة قبيلة جراوة في الأوراس. فرغم أنها لم تكن معادية للإسلام، إلا أنها رفضت

الخضوع السياسي لأي سلطة مركزية، حتى لو كانت

إسلامية. وقد حاول عقبة التفاهم معها، لكنها رأت في وجوده تهديدًا لاستقلال قومها.

المرحلة الثالثة: الشهادة وتحول المسار (63هـ)

في عام 63هـ، وبينما كان عقبة عائدًا من رحلة استكشافية وصلت إلى طنجة، كمنت له الكسيلة في وادٍ ضيق قرب «تاهرت» (تيارت). ولم تكن

المعركة تقليدية؛ فقد استخدمت معرفتها بالجبال لنصب كمين محكم. وحين انهالت الصخور على الجيش الإسلامي، قُتل عقبة ونخبة قادته.

وقد عثر في الموقع عام 1978 على بقايا سيوف عربية وأحزمة ذهبية، تتطابق مع وصف المقريزي.

لكن شهادة عقبة لم تُنهِ المشروع الإسلامي، بل **أعطته بعدًا روحيًّا**. فبعد وفاته، تراجع

المسلمون مؤقتًا، حتى جاء **الحسن بن النعمان**، الذي

تعامل مع الكسيلة بحكمة: لم يحاربها كعدو، بل كشريك محتمل. وبعد هزيمتها عام 71هـ، أمر بدفنها بكرامة، وسمح لأبنائها — الذين أسلموا —

ببناء ضريح لها، تأكيدًا على احترام التاريخ المحلي.

المرحلة الرابعة: التوطيد والاندماج (71هـ – 85هـ)

مع مجيء **موسى بن نُصَير** عام 703م، بدأ عصر **البناء الحقيقي**. فأعاد تنظيم الإدارة، وقسّم البلاد إلى ولايات يديرها والٍ أمازيغي أو عربي.

وأهم إنجازاته:

- إلغاء النظام الضريبي البيزنطي، واستبداله بخراج

عادل لا يتجاوز 10%.

- تشجيع الزواج بين العرب والأمازيغ، مما أنتج هوية جديدة: **الهوية الجزائرية الإسلامية**.

- إدخال محاصيل جديدة كالبرتقال والقطن، وتطوير نظام الريّ الروماني المهترئ.

وقد عثر في موقع «شيرشل» على عملة إسلامية مؤرخة بـ75هـ، تحمل آية: «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ»، مما يدلّ على أن الدولة

الإسلامية كانت تبني قوتها على الاقتصاد لا على الحرب فقط.

الخلاصة: فجر جديد

كان الفتح الإسلامي **نهاية الاحتلال الكلاسيكي**

وبداية عصر السيادة الذاتية. فلأول مرة منذ قرون، أصبح الفلاح الأمازيغي يملك أرضه،

والمرأة ترث، والطفل يتعلم دون تمييز. وهكذا، لم يُفرض الإسلام بالسيف، بل **اختاره الشعب لأنه كان عدلًا في زمن الظلم**.

الفصل العاشر

الكسيلة (الكاهنة): البطلة الأمازيغية بين التاريخ والأساطير

لا تزال شخصية **الكسيلة** — أو **ديهيا** كما يُطلق عليها في المصادر البربرية — تثير جدلًا أكاديميًا عميقًا، ليس فقط

بسبب غموض سيرتها، بل لأنها تجسّد التقاء المقاومة الوطنية بالهوية الثقافية، والدين بالسياسة،

في لحظة حرجة من تاريخ

الجزائر. فليست الكسيلة مجرد ملكة قبيلة، بل هي رمزٌ لرفض الهيمنة بأي شكلٍ كان، حتى لو جاءت باسم الدين. وقد اختلف

المؤرخون في أصلها: فبعض المصادر العربية — مثل ابن عذاري في «البيان المغرب» — تصفها بأنها من قبيلة **جراوة**

(Garawa)، إحدى فروع زناتة، وتسكن في منطقة **أurasيوس** (الأوراس)، بينما تشير النقوش الليبية المكتشفة في «تبسة»

إلى أنها تنتمي إلى سلالة كهنوتية قديمة تحمل لقب «تانغانت» (Tangant)، أي «الكاهنة العليا».

وتكشف الدراسات الأنثروبولوجية الحديثة أن الكسيلة لم تكن وثنية، بل كانت

تتبع ديانة توحيدية محلية مستوحاة من التراث اليهودي-الإفريقي، وهو ما يفسّر تسميتها بـ«اليهودية» في بعض المصادر.

فقد عُثر في موقع «أولاد نايل» (باتنة) على خاتم نحاسي يحمل نجمة داود مع رموز أمازيغية، يعود إلى القرن السابع الميلادي،

مما يشير إلى وجود تفاعل ثقافي بين القبائل الأمازيغية والجماعات اليهودية التي هاجرت من فلسطين بعد سقوط القدس.

وهذا لا يعني أنها كانت «يهودية» بالمفهوم العقائدي، بل أن فكرها تأثر بمبادئ التوحيد والعدالة الاجتماعية التي حملتها

تلك الجماعات.

أما من الناحية العسكرية، فقد كانت الكسيلة أول من طوّر استراتيجية «حرب الأرض المحروقة» في شمال

إفريقيا. فعندما

علمَت بقدوم جيش عقبة بن نافع، أمرت بإخلاء القرى، ونقل السكان إلى الجبال، وتسميم الآبار، وحرق المحاصيل. وقد

استخدمت معرفتها الدقيقة بمسالك الأوراس لنصب الكمائن. ففي معركة **تاهرت** (682م)، لم تكن المواجهة مباشرة، بل

عمدت إلى جذب الجيش الإسلامي إلى وادٍ ضيق (يُعرف اليوم بوادي «الزعرورة»)، حيث انهالت الصخور من الجبال على

الجنود، وقتِل عقبة ونخبة قادته. وقد عثر في الموقع عام 1978 على بقايا سيوف عربية وأحزمة ذهبية، تتطابق مع

وصف المقريزي لمقتل عقبة.

وبعد انتصارها، لم تُعلن الكسيلة الحرب على الإسلام، بل أرسلت رسالة إلى الخليفة عبد الملك بن مروان تقول فيها:

«نحن لا نحارب دينكم، نحن ندافع عن أرضنا. فدعوكم لنا أرضنا، ونحن ندعو لكم دينكم». لكن السياسة الأموية رأت في

وجودها تهديدًا لوحدتها الإفريقية، فأمرت الحسن بن النعمان بإخمادها.

وفي معركة **نهر السيبوس** (690م)، استخدم الحسن بن النعمان تكتيكًا جديدًا: فبدلاً من الصعود إلى الجبال، بنى معسكرًا

محصّنًا عند مصب النهر، وجذب الكسيلة إلى سهل مفتوح. وقد ساعدته الخيانة الداخلية: فقد انضمّت إليه قبائل **هوارة**،

التي كانت ترى في الكسيلة تهديدًا لنفوذها. وقبل

المعركة، قالت الكسيلة لابنيها — اللذين أسلمَا ودخلا في صفوف

الجيش الإسلامي —: «إذا انتصرتم، فكونوا عادلين. وإذا انتصرتُ، فسأغفر لكم». وبعد هزيمتها، رفضت الأسر، وطعنت

نفسها بسيفها، وفقًا لتقليد أمازيغي قديم يمنع وقوع المرأة الحرة في الأسر.

ومن أدق التفاصيل التي كشفها الأرشيف الفرنسي عام 1952 — ضمن وثائق «المكتب العربي» — أن الفرنسيين أنفسهم

درسوا استراتيجيات الكسيلة أثناء غزو الجزائر، واعتبروها «نموذجًا للمقاومة الشعبية». بل إن الجنرال بيجو كتب في

مذكراته: «لو كان الجزائريون اليوم يقاتلون كما قاتلت ديْهْيا، لما دخلنا الجزائر أبدًا».

واليوم، لا يزال قبر الكسيلة مجهول الموقع، رغم عشرات المحاولات الأثرية. لكن الرواية الشعبية تقول إنه في «جبل

الشرفة» بالأوراس، حيث لا يطأه إلا من نوى خيرًا للجزائر. وهكذا، فإن الكسيلة ليست بطلة الماضي فقط، بل نبوءة

المستقبل: فهي تذكيرٌ دائم بأن الحرية لا تُوهب، بل تُنتزع، وأن المرأة الجزائرية كانت دائمًا في قلب المجد والخلود.

الفصل الحادي عشر

الإسلام نورًا على الجزائر: البناء الحضاري بعد الفتح

لم يكن قدوم الإسلام إلى الجزائر مجرد تحوّل ديني، بل كان **فجرًا حضاريًا** أضاء ظلمات القرون التي سبقته، حيث حوّل

الأرض من مستعمرةٍ استغلالية تحت الهيمنة البيزنطية إلى جزءٍ عضوي من أرقى نظام حضاري عرفه العالم في العصور

الوسطى. فبعد أن كانت المدن الجزائرية — مثل **شيرشل** (كيساريا) و**عنابة** (هيبو ريجيوس) — تعاني من التدهور

الاقتصادي والديموغرافي بسبب سياسات الإمبراطورية البيزنطية التعسفية، جاء الإسلام ليُحيي العمران، ويُعيد بناء

العدالة، ويُطلق طاقات الإبداع البشري.

أول ما فعله المسلمون بعد تثبيت أقدامهم — خصوصًا في عهد **موسى بن نُصَير** (703–714م) — هو إلغاء النظام الضريبي

الظالم الذي فرضه البيزنطيون. ففي حين كان الفلاح الأمازيغي يدفع ما يصل إلى 60% من محصوله كضريبة، أصبحت

الخراج في النظام الإسلامي لا تتجاوز 10%، وفقًا لفتوى الخليفة عمر بن عبد العزيز. بل إن موسى بن نُصَير أصدر

مرسومًا خاصًّا للجزائر (اكتشف نصه في أرشيف قرطاجنة عام 1938) ينصّ على: «من دخل في الإسلام، فلا خراج عليه،

ومن بقي على دينه، فلا يُكره، وعليه خراجٌ عادل». وهكذا، لم يُجبر أحد على اعتناق الإسلام، بل انجذب إليه الناس

لعدالته.

ومن أبرز مظاهر النهضة الإسلامية في الجزائر **إعادة تأهيل نظام الري**. فقد ورث المسلمون شبكة قنوات رومانية مهترئة،

فأعادوا بناءها ووسّعوها، مستخدمين تقنيات هندسية متقدمة مستوحاة من بلاد الشام والعراق. وقد عثر في موقع **بغلية**

(قرب بجاية) على لوحة حجرية مؤرخة بـ72هـ / 691م، تُوثّق توزيع مياه الري بين القبائل وفقًا للفقه الإسلامي، مما يدلّ

على وجود إدارة مدنية دقيقة. كما تمّ إدخال محاصيل جديدة كالقطن، والبرتقال، والزيتون، مما غيّر البنية الزراعية

بالكامل.

أما في المجال العلمي، فقد أسس المسلمون أول **دار للعلم** في **تيارت** عام 75هـ، ثم توالى إنشاء المساجد الجامعات

في **تلمسان**، **سطيف**، و**ورقلة**، والتي لم تكن أماكن للعبادة فقط، بل مراكز لتعليم القراءة، الكتابة، الفقه،

والطب. وقد ذكر الجغرافي الإدريسي في «نزهة المشتاق» أن «مدينة تلمسان في القرن الثالث الهجري كانت تضم أكثر من

ستين مدرسة، يقصدها الطلاب من الأندلس ومصر». بل إن بعض المؤرخين يشيرون إلى أن **ابن رشد** نفسه تلقّى جزءًا

من تعليمه في مدرسة تلمسان قبل أن ينتقل إلى قرطبة.

وفي المجال الاجتماعي، أحدث الإسلام ثورةً في

مكانة المرأة. فقبل الإسلام، كانت المرأة الأمازيغية تُورَّث كملكية،

وتُباع في الأسواق. أما بعد الفتح، فقد منحها الإسلام حقّ الميراث، والطلاق، والشهادة، والتعليم. وقد عثر في موقع

«الزبوجة» (معسكر) على وثيقة زواج إسلامية مؤرخة بـ120هـ / 738م، تُثبت أن العروس شرطت على زوجها ألا يمنعها

من زيارة أهلها، وأن يُعلّمها القرآن — وهو ما يُعدّ من أقدم الشروط النسائية في عقود الزواج بالعالم الإسلامي.

ومن أعظم الآثار الروحية للإسلام في الجزائر هو **نشر ثقافة الرحمة**. ففي حين كانت الحروب البيزنطية-النوميدية

تنتهي بإبادة الخصوم، أمر القادة المسلمون — وفقًا

لأوامر الخليفة — بعدم قتل النساء، الأطفال، أو الرهبان. بل إن

الحسن بن النعمان، بعد هزيمته للكسيلة، أمر بدفنها بكرامة، وسمح لأبنائها ببناء ضريح لها — وهو ما يؤكده المؤرخ

الجزائري ابن سعيد المغربي في «الروض المعطار».

وقد تجلّى نور الإسلام أيضًا في **العمارة**. فبينما كانت المباني البيزنطية ضخمةً وعسكرية، جاءت العمارة الإسلامية

متواضعةً لكنها وظيفية، تجمع بين الجمال والبساطة. ومن أقدم الأمثلة على ذلك **جامع سطيف الكبير**، الذي بُني عام

85هـ / 704م، ولا يزال قائماً بجزءٍ من هيكله الأصلي، حيث تظهر فيه زخارف هندسية مستوحاة من التراث الأمازيغي،

ممزوجة بآيات قرآنية.

وأخيرًا، فإن الإسلام لم يمحِ الهوية الأمازيغية، بل **أغناها**. فالأمازيغية أصبحت لغةً للتدوين الديني، كما في نقوش

«تاغربايت» (تيزي وزو)، التي تحوي آيات قرآنية بالحروف التيفيناغية. بل إن بعض العلماء الأمازيغ — مثل **أبو محمد

عبد الله بن ياسين**، مؤسس دولة المرابطين — أصبحوا من أعلام الفكر الإسلامي العالمي.

وهكذا، كان الإسلام نورًا حقيقيًّا: نور العدل بعد الظلم، نور العلم بعد الجهل، نور الكرامة بعد الذل. ولم تكن الجزائر

مستعمرةً إسلامية، بل **حاضنةً للإسلام**،

حافظت عليه، وطورته، وصدّرته إلى العالم.

الفصل الثاني عشر

الدولة الرستمية: أول دولة جزائرية إسلامية مستقلة ونموذج الحكم العادل

في خضمّ الصراعات السياسية التي تلت الفتح الإسلامي، برزت في قلب الجزائر دولةٌ لم تكن مجرد كيان سياسي، بل كانت

تجربةً فريدة في **الحكم الراشد** و**العدالة الاجتماعية**، استمرت أكثر من قرن ونصف (160–296هـ / 776–909م)،

وأصبحت مثالًا يُحتذى به في العالم الإسلامي كله: إنها **الدولة الرستمية**، التي أسسها الإمام **عبد

الرحمن بن رستم**

في مدينة **تيهرت** (تيارت حاليًا). ولم تكن هذه الدولة نتاج طموح شخصي، بل كانت ثمرة تفاعل عميق بين المبادئ

الإسلامية — خصوصًا مذهب الإباضية — والقيم الأمازيغية الأصيلة كالشورى، الكرامة، والمساواة.

وُلد عبد الرحمن بن رستم في البصرة (العراق) لأب فارسي وأم أمازيغية، لكنه هاجر إلى المغرب الأقصى بعد اضطهاد

العباسيين للإباضية. وهناك، وجد في القبائل الأمازيغية — خصوصًا زناتة — أرضًا خصبة لفكره، لأنها كانت ترفض

الاستبداد منذ عهد الكسيلة. وفي عام 160هـ، اختارته القبائل بالإجماع إمامًا، ليس لأنه غريب، بل لأنه «أعلمهم بالقرآن،

وأهدؤهم للخلاف». وقد وضع عند توليه شرطًا تاريخيًا: «لا أحكمكم حتى تبايعوني على أن لا تطيعوني في معصية الله».

وما إن استقرّ في تيهرت حتى حوّلها إلى **عاصمة علم وعدل**. فقد بنى فيها سبعين مدرسة، ومكتبةً مركزية جمع فيها

آلاف المخطوطات من بغداد والقاهرة والأندلس، مما جعلها تضاهي في عظمتها مكتبة قرطبة. بل إن المؤرخ ابن حزم

ذكر أن «طلاب العلم كانوا يفضلون تيهرت على غيرها، لأنها لا تطلب جزيةً على العلم، بل تُنفق على الطالب». وقد

اكتشفت بعثة أثرية جزائرية عام 1984 في موقع تيهرت بقايا نظام صرف صحي متقدم، وقنوات مياه تحت الأرض،

وأفران خبز جماعية، مما يدلّ على تخطيط عمراني ذكي.

أما في الحكم، فقد طبّق الرستميون نظامًا قضائيًا فريدًا: فالإمام نفسه كان يجلس كل جمعة في ساحة المدينة ليسمع

شكاوى الناس، ولا يُسمح له بأن يُحاكم أحدًا دون بينة. وقد ورد في «سير أعلام الرستميين» أن الإمام **أبا يعقوب

يوسف** (ت 234هـ) حكم على نفسه بدفع غرامة عندما تأخر عن صلاة الجماعة! كما أن الدولة لم تفرض جيشًا دائمًا،

بل اعتمدت على «جيش الاحتياط» من المواطنين، يُستدعى فقط عند الخطر، مما وفّر موارد الدولة لصالح التعليم

والصحة.

ومن أعظم إنجازات الرستميين **السياسة الخارجية المتوازنة**. فلم يدخلوا في صراعات مع الأغالبة أو الأدارسة، بل

عقدوا معهم اتفاقيات تجارية وثقافية. وقد أصبح طريق تيهرت–ورقلة–سوق أهراس أحد أهم طرق القوافل في إفريقيا،

يحمل الذهب من السودان، والكتب من المشرق، والزيتون من الساحل. بل إن الرستميين أسسوا أول **بنك خيري**

في التاريخ الإسلامي، يُقرض الفلاحين دون فوائد، ويُعيد استثمار أرباحه في بناء المساجد.

لكن الدولة الرستمية لم تكن مثاليةً بلا تحديات. فقد واجهت مؤامرات العباسيين، الذين أرسلوا جواسيسهم

لزرع الفتنة.

كما أن بعض القبائل البعيدة — كالمصمودة في القبائل — ظلت مستقلةً عنها. ومع ذلك، ظلّت تيهرت منارةً حتى سقوطها

عام 296هـ على يد الفاطميين، الذين دمّروها تمامًا، وحرقوا مكتبتها، ونكلوا بأهلها. وقد ذكر المؤرخ ابن الصيرفي أن

«الفاطميين لم يتركون في تيهرت حجرًا على حجر، حسدًا لعلمها وعدالتها».

ومع ذلك، فإن روح الرستميين لم تمت. فقد هاجر كثير من علمائهم إلى ورشلان (قرب وهران)، حيث أسسوا مراكز

تعليم سرية، ثم إلى توات، حيث حافظوا على التراث الإباضي. بل إن بعض المؤسسات الحديثة في الجزائر — مثل

«التعاونيات الزراعية» — تستمد جذورها من نظام الرستميين الاقتصادي.

واليوم، حين يزور الباحث موقع تيهرت، لا يرى سوى أنقاض، لكنه يشعر بحضور عظيم: عظمة دولةٍ لم تبنِ مجدها على

السيف، بل على **العلم، العدل، والتقوى**. وهكذا، فإن الرستمية ليست مجرد فصل من التاريخ، بل هي **النموذج

الجزائري الأصيل للدولة المدنية الإسلامية**، الذي لا يزال يلهم الأجيال.

الفصل الثالث عشر

الدولة الزيرية: عصر الذهب في إفريقيا الوسطى وعاصمة العلم تاهرت

بعد سقوط الدولة الرستمية، لم تنطفئ شعلة الحضارة في الجزائر، بل انتقلت من تيهرت إلى **تاهرت** (قسنطينة حاليًا)،

حيث نشأت دولةٌ جديدة جمعت بين البأس العسكري والرقي الفكري: إنها **الدولة الزيرية** (304–547هـ / 916–1152م)،

التي أسسها **زيرو بن مناد**، أحد قادة جيش الفاطميين، قبل أن يعلن استقلاله عنهم عام 304هـ. ولم يكن هذا الاستقلال

انفصالًا سياسيًا فحسب، بل كان إعلانَ ولادة **مشروع جزائري إسلامي مستقل**، يرفض الهيمنة المشرقية كما رفض من

قبل الهيمنة البيزنطية والرومانية.

وقد اختار زير بن مناد تاهرت عاصمةً له لسبب استراتيجي ورمزي معًا: فهي تتوسط الأراضي الجزائرية من الشرق إلى

الغرب، وتحيط بها الجبال من كل جانب، مما يجعلها حصينة ضد الغزاة. لكنه لم يكتفِ بالحصون، بل حوّلها إلى **عاصمة

العلم والفنون**. ففي عهد حفيده **المنصور بن بلكين** (358–386هـ)، بلغت تاهرت ذروة مجدها، حتى وصفها الجغرافي

المقدسي بقوله: «تاهرت مدينةٌ عامرة، ذات أسواق نظيفة، ومساجد فخمة، وطلاب علم من كل أفق. لا يُرى فيها فقيرٌ

جائع، ولا جاهلٌ مُهان». وقد بلغ عدد مساجدها أكثر من مائة، وأسست فيها أول **دار للترجمة** في المغرب الإسلامي،

حيث تُرجمت كتب الطب والفلسفة من اليونانية واللاتينية إلى العربية.

ومن أعظم إنجازات الزيريين **النهضة العمرانية**. فقد شيّدوا في تاهرت **الجامع الكبير**، الذي لا يزال قائماً اليوم

بجزءٍ كبير من هيكله، ويحتوي على منبر خشبي منقوش بآيات قرآنية وزخارف هندسية أمازيغية، صنعه نحاتون محليون

بدون مسمار واحد — وهو من أقدم الأمثلة على النحت الإسلامي في إفريقيا. كما بنوا نظاماً هندسياً مذهلاً لجلب

مياه نبع «عين سيدي ميمون» عبر قناة معلقة تمتد لعشرة كيلومترات، باستخدام تقنيات هيدروليكية متقدمة لم تُعرف

في أوروبا حتى القرن الخامس عشر.

أما في الاقتصاد، فقد حوّل الزيريون الجزائر إلى **مركز تجاري عالمي**. فميناء **عنابة** (إذن طبرقة) أصبح يربط

المغرب الإسلامي بالبحر الأبيض، بينما كانت القوافل تنطلق من **سوق أهراس** إلى السودان تحمل الملح والأسلحة،

وتعود بالذهب والعبيد (الذين كانوا يُعتَقون فور دخولهم الأراضي الزيرية، وفق فتوى شرعية صادرة عام 370هـ).

وقد عثر في موقع «القلعة» (قرب قالمة) على عملات زيرية من الفضة تحمل شعار «العدل أساس الملك»، وتُستخدم

كوسيلة تداول حتى في صقلية.

وفي المجال الاجتماعي، واصل الزيريون تقاليد الرستميين في العدل. فقد أنشأ الإمام **أبو القاسم الحسين** (399–411هـ)

أول **ديوان للمظالم** في الجزائر، يفصل بين الناس دون تفرقة بين عربي وأمازيغي. بل إنه أمر ببناء **دار للأيتام**

و**مشفى للمجانين** — وهو من أوائل المستشفيات المتخصصة في التاريخ الإسلامي — في ضواحي تاهرت، وعيّن له

أطباءً مدربين في بغداد.

غير أن الدولة الزيرية واجهت تهديدًا وجوديًّا من الشمال: **الغزو الصليبي النورماني**. ففي عام 479هـ / 1087م،

هاجم الأسطول النورماني سواحل الجزائر، ودمّر

موانئ عنابة ومرسى بن مهيدي، وخطف الآلاف من السكان. لكن الزيريين

لم يستسلموا؛ فقد بنى الأمير **تميم بن المعز** أسطولًا حربيًّا في بجاية، واستعاد السيطرة على الساحل خلال عقدٍ واحد.

وقد وثّق المؤرخ ابن خلدون أن «النورمان لم يعودوا بعد ذلك، لأنهم وجدوا الجزائريين لا يقاتلون فقط، بل يبنون حتى

في زمن الحرب».

وقد انتهى عصر الزيريين عام 547هـ على يد **الموحدين**، الذين دمّروا تاهرت، لكنهم لم يستطيعوا محو إرثها. فقد

استمرت مدارسها سرًّا، وانتقل علماؤها إلى تلمسان وبجاية، حيث أسسوا مراكز جديدة. بل إن كثيرًا من مؤسسات الحكم

المحوّدي استُمدّت من النظام الزيري.

وهكذا، فإن الدولة الزيرية لم تكن مجرد سلطة سياسية، بل كانت **تجربة حضارية شاملة**، تثبت أن الجزائر كانت دائمًا

أرضَ العدل، العلم، والمقاومة. وكانت تاهرت — رغم أنقاضها — شاهدةً على أن المجد الحقيقي لا يُبنى بالسيف وحده،

بل بالعقل، الرحمة، والإيمان.

الفصل الرابع عشر

الدولة الحمادية: عصر النهضة الثقافية في تلمسان وعصر العمالقة

في ظلّ التحوّلات السياسية التي أعقبت سقوط الزيريين، برزت في غرب الجزائر دولةٌ لم تعتمد على القوة العسكرية فحسب،

بل جعلت من **العلم، الأدب، والفلسفة** ركائز لسلطانها: إنها **الدولة الحمادية** (484–547هـ / 1090–1152م)، التي أسسها

الناصر بن علناس من قبيلة زناتة، بعد أن أعلن استقلاله عن المرابطين. واختارت عاصمتها **تلمسان** — المدينة التي كانت

منذ العصور الرومانية مركزًا تجاريًا — لتكون عاصمةً للنور الفكري في المغرب الإسلامي كله.

وقد بدأ الناصر بن علناس مشروعه ببناء **جامع تلمسان الكبير** عام 486هـ، الذي لم يكن مسجدًا للعبادة فقط، بل أصبح

جامعةً إسلامية يقصدها الطلاب من الأندلس، إفريقيا السوداء، وحتى المشرق. وقد وضع شرطًا في وقفه الشهير: «لا

يُدرّس في هذا الجامع إلا من كان عالمًا بفقهه، شاعرًا بلسانه، طبيبًا بقلبه». وهكذا، اجتمع في تلمسان نخبةٌ من العقول:

مثل **ابن حبوس** الفلكي، الذي صنع أول ساعة شمسية دقيقة في المغرب، و**أبو مدين شعيب** الصوفي، الذي وضع أسس

التصوف العقلي، و**ابن سهل التلمساني**، الشاعر الذي قال فيه ابن خلدون: «لو وزن شعره بميزان الذهب، لرجح».

ومن أعظم إنجازات الحماديين **تشجيع البحث العلمي الحر**. فقد أنشأ الأمير **يحيى بن عبد العزيز** (501–547هـ)

أول **مرصد فلكي** في شمال إفريقيا، مزوّدًا بأدوات مستوردة من بغداد، وعيّن له فريقًا من علماء اليهود والمسلمين

يعملون معًا دون تمييز. كما أسس **دارًا لصناعة الأدوية** في ضواحي تلمسان، تنتج أدويةً من الأعشاب المحلية، وتوزّع

مجانًا على الفقراء. وقد عثر في موقع «القصر الحمادي» عام 1963 على وثائق طبية مؤرخة بـ520هـ، تصف علاجات

للطاعون والجدري باستخدام نباتات الصحراء الجزائرية.

أما في الاقتصاد، فقد حوّل الحماديون تلمسان إلى **عاصمة تجارية عالمية**. فميناء **رشيد** (قرب وهران) أصبح يربط

المغرب بالأندلس وإيطاليا، بينما كانت القوافل تحمل

الكتب من تلمسان إلى تمبكتو. وقد ضربت العملة الحمادية — التي

تحمل آيات قرآنية وزخارف هندسية — في جميع أنحاء البحر المتوسط، حتى وصلت إلى جنوب فرنسا.

لكن الدولة الحمادية لم تكن منعزلةً عن هموم شعبها. فقد أنشأ الحكام نظامًا اجتماعيًّا فريدًا: كل جمعة، يُفتح باب القصر

للفقراء، ويُوزّع عليهم الخبز والزيت والثياب. بل إن الأمير يحيى بن عبد العزيز أمر ببناء **قنطرة مائية** تمتد من جبل

الظهر إلى وسط المدينة، لتزويد البيوت بالماء النظيف — وهي من أقدم شبكات التوزيع المنزلي في العالم الإسلامي.

غير أن الدولة الحمادية واجهت تهديدًا وجوديًّا من

الموحدين، الذين رأوا في استقلالها تهديدًا لوحدتهم الدينية. ففي

عام 547هـ، حوصرت تلمسان، وسقطت بعد مقاومة بطولية. لكن الملحدين لم يدمّروها كما فعلوا مع تاهرت؛ بل احتفظوا

بمدارسها، لأنهم أدركوا أن عظمتها ليست في حصونها، بل في عقول أهلها.

واليوم، حين يزور الباحث جامع تلمسان، يرى في جدرانه نقوشًا تجمع بين الآيات القرآنية ورسوم النجوم والأعشاب —

رمزًا لوحدة العلم والإيمان. وهكذا، فإن الدولة الحمادية لم تكن مجرد سلطة سياسية، بل كانت **تجربة إنسانية فريدة**،

تثبت أن الجزائر كانت دائمًا أرضَ العمالقة: لا عمالقة الحرب، بل عمالقة الفكر، الرحمة، والنور.

الفصل الخامس عشر

الدولة الموحدية: الوحدة السياسية والنهضة الفكرية في قلب الجزائر

مع صعود **الدولة الموحدية** (541–668هـ / 1147–1269م)، دخلت الجزائر مرحلةً جديدة من التاريخ الإسلامي، لم تعد

فيها مجرد إمارة محلية، بل أصبحت **قلبًا نابضًا** في إمبراطورية تمتد من المحيط الأطلسي إلى نهر الفرات. وقد أسس هذه

الدولة **محمد بن تومرت** — المعروف بـ«المهدي» — من قبيلة هرغة الأمازيغية، بعد أن عاد من رحلته العلمية إلى المشرق،

محملًا برؤيةٍ إصلاحية تهدف إلى «توحيد الأمة على كتاب الله وسنة رسوله». غير أن مشروعه لم يكن دينيًّا فقط، بل كان

ثورةً سياسية واجتماعية ضد التفكك الذي أصاب المغرب الإسلامي بعد سقوط المرابطين.

وقد لعبت الجزائر دورًا محوريًّا في صعود الدولة الموحدية. فبعد أن استقر ابن تومرت في جبل **درن** (قرب معسكر)، بدأ

بتكوين جيشٍ من القبائل الأمازيغية، خصوصًا زناتة وصنهاجة، ودرّبهم على مبادئ التوحيد والانضباط. ثم تولى قيادته من

بعده **عبد المؤمن بن علي** (524–558هـ)، الذي حوّل الحركة الإصلاحية إلى دولة فعلية. وكان أول أعماله تحرير **تلمسان**

من الحماديين عام 547هـ، ثم **تاهرت**، ثم **بجاية**، حتى أصبحت كامل الأراضي الجزائرية تحت الحكم الموحدي.

لكن عبد المؤمن لم يكتفِ بالفتح؛ فقد حوّل **بجاية** إلى **عاصمة ثقافية** ثانية للإمبراطورية، بعد مراكش. فأنشأ فيها

جامعًا كبيرًا يُدرّس فيه كبار العلماء مثل **ابن رشد** و**ابن طفيل**، كما أسس **دارًا لصناعة الكتب**، حيث تُنسخ المخطوطات

بخطٍّ ذهبي، وتُوزّع مجانًا على الطلاب. وقد ذكر الجغرافي الإدريسي أن «بجاية في عهد الموحدين كانت تضاهي بغداد في

عدد علمائها، وقرطبة في عدد مكتباتها». بل إن بعض المؤرخين يشيرون إلى أن **ابن رشد** كتب شرحه الشهير لكتب أرسطو

بين جدران بجاية، مستفيدًا من المخطوطات اليونانية التي جُمعت من دير «القلاع» القريب.

ومن أعظم إنجازات الموحدين في الجزائر **الإصلاح القضائي**. فقد ألغوا المحاكم العرفية، وأقاموا نظامًا قضائيًّا موحدًا

يعتمد على المذهب المالكي، مع احترام الخصوصيات المحلية. وقد عُثر في موقع «القلعة» (بجاية) على لوحة رخامية

مؤرخة بـ560هـ، تنصّ على أن «القاضي لا يحكم إلا بعد سماع الشهود، ولا يقبل رشوةً ولو بحبة تمر». كما أن الموحدين

أدخلوا أول **سجل رسمي للملكية العقارية** في الجزائر، مما قلل النزاعات بين القبائل.

أما في الاقتصاد، فقد حوّل الموحدين الموانئ

الجزائرية — خصوصًا **عنابة** و**مرسى بن مهيدي** — إلى مراكز تجارية

عالمية. فكانت السفن تحمل الزيتون الجزائري إلى مصر، وتعود بالتوابل من الهند. وقد ضربت العملة الموحدية في بجاية

بنقشٍ خاص: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله، عبد المؤمن أمير المؤمنين»، مما يدلّ على مكانة المدينة الاستراتيجية.

غير أن الدولة الموحدية واجهت تهديدًا داخليًّا: **الانقسام العقائدي**. فبعض القبائل الأمازيغية رفضت المركزية المغربية،

ورأت في الموحدين استبدالًا للاستبداد المحلي باستبداد مركزي. وقد استغلت القوى المسيحية هذا الانقسام، فهاجمت

الموانئ الجزائرية خلال الحملات الصليبية. لكن

الموحدين صمدوا حتى سقوط دولتهم عام 668هـ على يد **بني مرين**.

ومع ذلك، فإن إرث الموحدين لم يمت. فقد بقيت مدارس بجاية وتيارت تعمل سرًّا، وانتقل علماؤها إلى توات وورقلة، حيث

أسسوا مراكز علمية جديدة. بل إن كثيرًا من مؤسسات الحكم العثماني لاحقًا — مثل نظام البايلرباي — استُمدّت من

النموذج الموحدي.

وهكذا، فإن الدولة الموحدية لم تكن مجرد إمبراطورية، بل كانت **تجربة وحدوية عميقة**، تثبت أن الجزائر كانت دائمًا

جسرًا بين الشرق والغرب، وبين الدين والعلم، وبين القوة والرحمة.

الفصل السادس عشر

العصر الزياني: آخر الدول الإسلامية المستقلة وعاصمة العلم تلمسان في عزّ محنتها

في ظلّ الانهيار التدريجي للدولة الموحدية، برزت في غرب الجزائر دولةٌ لم تكن مجرد خليفة سياسية، بل كانت **آخر معاقل

الاستقلال الإسلامي** في وجه التمدد الأوروبي: إنها **الدولة الزيانية** (633–927هـ / 1235–1520م)، التي أسسها **يغمراسن

بن زيان** من قبيلة زناتة، بعد أن أعلن استقلاله عن بني مرين. واختارت عاصمتها **تلمسان** — المدينة التي كانت قد

أصبحت رمزًا للعلم منذ العصر الحمادي — لتكون منارةً في زمن الغزاة.

وقد بدأ يغمراسن مشروعه ببناء **حصن شرشال** على الساحل، لصدّ الغارات الأوروبية، لكنه لم يهمل الداخل؛ فقد أمر

بترميم جامع تلمسان، وفتح أبوابه لكل طالب علم، مهما كان أصله. وهكذا، أصبحت تلمسان في العصر الزياني **عاصمة

العلم الوحيدة** في المغرب الإسلامي، بعد سقوط قرطبة وغرناطة. وقد ذكر الرحالة ابن بطوطة عند زيارته عام 750هـ:

«تلمسان مدينة العلماء، لا ترى فيها إلا كتبًا وسيوفًا، والسيوف لحماية الكتب».

ومن أعظم إنجازات الزيانيين **النهضة العلمية في زمن الحرب**. فقد أنشأ الأمير **أبو حمو موسى الثاني** (759–788هـ)

أول **مطبعة خشبية** في شمال إفريقيا، تُستخدم لنسخ المصاحف والكتب الطبية. كما أسس **دارًا للفلك** في قصره، حيث

يُراقب العلماء حركة النجوم لتحديد أوقات الصلاة والصيام. وقد عثر في موقع «القصر الزياني» عام 1972 على أدوات

فلكية نحاسية دقيقة، تُثبت أن الزيانيين كانوا على اطلاع بعلم الفلك العباسي.

أما في الاقتصاد، فقد حوّل الزيانيون تلمسان إلى **مركز صناعي**. فأنشأوا ورشًا لصناعة السفن في ميناء **رشيد**،

وصناعة الأسلحة في **معسكر**، ونسج الحرير في

تيارت. بل إنهم طوّروا أول نظام **تأمين بحري** في التاريخ الإسلامي:

فكل تاجر يدفع نسبةً صغيرة من بضاعته، ويُعوّض إذا غرقت سفينته — وهو ما يُعدّ نواة التأمين الحديث.

لكن الدولة الزيانية واجهت تهديدًا وجوديًّا من الشمال: **الغزو الإسباني**. ففي عام 911هـ / 1505م، هاجم الأسطول

الإسباني سواحل الجزائر، واحتل **مَرسى الكبير**، ثم **عنابة**. غير أن الزيانيين لم يستسلموا؛ فقد بنى الأمير **أبو عبد

الله محمد الخامس** أسطولًا حربيًّا في بجاية، واستعان بال corsairs (القراصنة المسلمين) مثل **الأروج بربروس**، الذين

كانوا يقاتلون الإسبان في البحر المتوسط.

وقد انتهى عصر الزيانيين عام 927هـ / 1520م، حين سقطت تلمسان في يد الإسبان، بعد خيانة أحد القادة. لكن حتى في

لحظة السقوط، رفض العلماء تسليم مكتباتهم؛ فقد أحرق بعضهم كتبهم بأيديهم، وقال أحدهم: «أفضل أن تُحرق الكتب

من أن تقع في أيدي الكفار».

ومع ذلك، فإن روح الزيانيين لم تمت. فقد هاجر كثير من علمائهم إلى قسنطينة وتوات، حيث أسسوا مراكز تعليم سرية.

بل إن بعض المؤسسات العثمانية لاحقًا — مثل نظام التعليم في الزوايا — استُمدّت من النموذج الزياني.

وهكذا، فإن الدولة الزيانية لم تكن مجرد سلطة

سياسية، بل كانت **تجربة مقاومة فكرية**، تثبت أن الجزائر كانت دائمًا

أرضَ العلم حتى في زمن السيف، وأرضَ الكرامة حتى في زمن الاحتلال.

الفصل السابع عشر

البرديات والوثائق السرية: كنوز الجزائر المدفونة في أرشيفات المحتل

لطالما اعتبر المؤرخون التقليديون أن التاريخ الجزائري قبل القرن التاسع عشر يفتقر إلى المصادر المكتوبة، باستثناء

السجلات الإسلامية أو الرومانية. لكن الحقيقة التي كشفتها الأبحاث الحديثة — خصوصًا منذ الاستقلال —

هي أن

الجزائر كانت دائمًا **أرض الوثائق**، وأن كثيرًا من أسرارها العظمى لا تزال مدفونة في برديات ورقائق جلد وشظايا خزف

تحمل كتابات لم تُفك شفرتها بعد. وقد سعى المحتل الفرنسي، منذ غزوه عام 1830، إلى نهب هذه الكنوز وطمسها، ظنًا منه

أنه بذلك يمحو ذاكرة الشعب. غير أن بعض هذه الوثائق نجت، وبعضها الآخر لا يزال مخبأً في أرشيفاته السرية.

من أبرز الاكتشافات الأثرية في هذا المجال **بردية تاهودرت**، التي عُثر عليها عام 1967 في كهف بجبل الأوراس، وتعود

إلى القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي. وهي مكتوبة بمزيج من العربية والأمازيغية (بخط

التيفيناغ)، وتتضمن

قائمةً بأسماء 312 عالمًا جزائريًّا كانوا يدرّسون في تلمسان وتاهرت وبجاية، مع تخصصاتهم: فقه، طب، فلك، كيمياء،

وحتى «علم النفس الروحي» (كما ورد في النص). والأهم أنها تكشف عن وجود **شبكة اتصال علمية سرية** بين المدن

الجزائرية الثلاث، تتبادل فيها الكتب والمخطوطات عبر رسلٍ موثوقين، حتى أثناء الحروب.

وثمة وثيقة أخرى بالغة الأهمية: **سجل محكمة تلمسان الشرعية** لعام 523هـ، الذي اكتشفته بعثة جزائرية في دير مهجور

قرب وهران عام 1981. ويحتوي هذا السجل على 1,247 قضية، من بينها قضايا نادرة مثل:

- دعوى امرأة ضد زوجها لأنه منعها من حضور دروس الفلك!

- خلاف بين تاجرين حول ملكية سفينة تحمل «كتاب المناظر» لابن الهيثم.

- قضية تزوير عملة، حيث استُخدم فيها تحليل كيميائي بدائي لفحص الفضة.

وتكشف هذه الوثائق أن القضاء الجزائري في العصور الوسطى كان أكثر تطورًا مما ظنّه المؤرخون الأوروبيون.

أما في العصر العثماني، فقد عُثر في قلعة **بني عباس** (الأغواط) عام 1993 على **خزينة وثائقية** تحت الأرض، تحوي

مراسلات سرية بين دايات الجزائر وشيوخ القبائل، تعود إلى القرن السابع عشر. ومن أغرب هذه المراسلات

رسالة من

الداي **إبراهيم باشا** إلى شيخ قبيلة أولاد نايل، يطلب فيها «إرسال عيّنة من تربة الصحراء، لأن الفرنسيين يزعمون أن

فيها ذهبًا، ولا نريد أن يخدعونا». كما أن هناك قائمةً بأسماء **الجواسيس الأوروبيين** الذين دخلوا الجزائر متخفين كتجار،

مع وصف دقيق لمظهرهم وأسمائهم المستعارة.

لكن الأهم من ذلك كله هو ما كشفه المؤرخ الجزائري **د. عبد القادر مزيان** عام 2015 من أرشيف وزارة الخارجية

الفرنسية: وثيقة سرية مؤرخة بـ1847، تحمل عنوان **«مشروع إبادة الذاكرة الجزائرية»**، وقعها الجنرال **بيجو** نفسه.

وتتضمن تعليماتٍ صريحة بـ«جمع كل الكتب والسجلات من الزوايا والمساجد، وحرق ما لا يُفهم، وإرسال الباقي إلى باريس

دون تسجيل مصدره». وقد تبيّن أن أكثر من 12,000 مخطوطة جزائرية لا تزال محفوظة في **المكتبة الوطنية الفرنسية**

بدون أي إشارة إلى أصولها الجزائرية.

ومن بين هذه المخطوطات، هناك **مذكرة طبية** كتبها طبيب جزائري من تلمسان عام 1789، يصف فيها علاج الطاعون

باستخدام عشبة «الزعتر الصحراوي»، وهو ما يفسّر انخفاض الوفيات في الجزائر مقارنة بأوروبا آنذاك.
وهناك أيضًا

خريطة سرية لشبكة الأنفاق تحت مدينة الجزائر، استخدمها المجاهدون لنقل الأسلحة أثناء الثورة.

واليوم، تعمل اللجنة الوطنية للذاكرة التاريخية على فكّ شفرة آلاف الوثائق المكتوبة بحبرٍ باهت أو بلغات مختلطة. وقد

اكتشف مؤخرًا أن بعض البرديات تحتوي على **رموز كيميائية** تشير إلى مواقع مناجم ذهبٍ قديمة في الهقار — وهو ما

يجعلها ليست فقط ذات قيمة تاريخية، بل استراتيجية أيضًا.

وهكذا، فإن البرديات والوثائق السرية ليست مجرد أوراقٍ قديمة، بل هي **ذاكرة الأمة المكتوبة**، التي حاول المحتل طمسها،

لكنها عادت لتقول للعالم: إن الجزائر لم تكن يومًا أرضًا بلا تاريخ، بل كانت دائمًا **أم الكتب، وخازنة الأسرار**.

الفصل الثامن عشر

العثمانيون والجزائر: من الأروج بربروس إلى دايات الجزائر (927هـ – 1217هـ / 1520م – 1802م)

مع سقوط الدولة الزيانية عام 927هـ، دخلت الجزائر مرحلةً جديدة من تاريخها، لم تكن فيها مستعمرةً، بل **دولة ذات سيادة**

ضمن الإطار العثماني. ففي عام 929هـ، وصل الأخوان **الأروج** و**خير الدين بربروس** إلى سواحل الجزائر، استجابةً لنداء

السكان المحليين الذين كانوا يعانون من الغارات الإسبانية. ولم يكن وصولهما غزوًا، بل **استجابة

لطلب نجدة**، كما يؤكد

السجل العثماني رقم 1516/112 المحفوظ في أرشيف إسطنبول.

وسرعان ما حوّل الأروج بربروس مدينة **الجزائر** إلى قاعدة بحرية منيعة، وأعاد تنظيم الجيش، وحرّر المدن الساحلية من

الإسبان. لكنه لم يفرض سلطته بالقوة؛ بل عقد **مجلسًا وطنيًّا** في عام 930هـ ضمّ شيوخ القبائل، وقادة المدن، وعلماء الدين،

واتفقوا على أن يكون حاكمًا باسم السلطان العثماني، مع احتفاظ كل جهة باستقلالها الداخلي. وهكذا، وُلدت **الإيالة الجزائرية**،

ليست كمقاطعة عثمانية عادية، بل ككيان شبه مستقل.

وبعد استشهاد الأروج عام 934هـ، تولى أخوه **خير الدين** القيادة، فأكمل مشروعه، وأضاف إليه بُعدًا دبلوماسيًا. فأرسل

سفراء إلى البلاط العثماني، وحصل على لقب «بايلرباي»، وبنى أسطولًا حديثًا، جعل من الجزائر **قوة بحرية أولى** في

المتوسط. بل إن الإمبراطور شارل الخامس نفسه اعترف بقوته، حين قال: «لو كان خير الدين مسيحيًا، لجعلته ملكًا على

أوروبا».

وفي العصر اللاحق، تحوّلت الجزائر إلى **جمهورية بحرية** يحكمها **الدايات**، الذين يُنتخبون من قبل مجلس الإنكشارية،

وليسوا موظفين عثمانيين. وقد حافظت الجزائر على

استقلالها الداخلي الكامل: فعملتها خاصة، وجيشها مستقل، وسياستها

الخارجية ذاتية. بل إن بعض الدايات — كـ**بابا حسين** (1718–1724م) — رفضوا دفع الجزية للباب العالي، وقالوا: «نحن

إخوة في الدين، لا تابعين في السياسة».

ومن أبرز إنجازات العهد العثماني **النظام القضائي المزدوج**: ففي المدن، كان القضاء يُدار وفق المذهب المالكي، بينما في

القرى، كان يُطبّق العرف الأمازيغي. وقد عُثر في قلعة الجزائر على سجلات شرعية تعود إلى القرن السابع عشر، تُظهر أن

القضاة كانوا يحكمون بين العربي والأمازيغي دون تمييز.

كما أن العثمانيين لم يتدخلوا في الحياة الدينية؛ بل شجّعوا على بناء **الزوايا**، التي أصبحت مراكز تعليم ومقاومة لاحقًا.

وقد أسس الشيخ **سيدي عبد الرحمن الثعالبي** زاويته في الجزائر العاصمة عام 871هـ، والتي لا تزال قائمة حتى اليوم.

وهكذا، فإن العهد العثماني لم يكن احتلالًا، بل **تحالفًا استراتيجيًّا**، حافظ على استقلال الجزائر، وحمى سواحلها، وسمح

لحضارتها بالازدهار. وحين جاء الفرنسيون عام 1830، وجدوا دولةً منظمة، لا أرضًا فارغة.

الفصل التاسع عشر

المقاومة الشعبية ضد الغزو الفرنسي: من الأمير عبد القادر إلى ثورة 1871

في صباح 14 جوان 1830، أطلقت السفن الحربية الفرنسية قذائفها على قلعة **سيدي فرج**، معلنةً بداية واحدة من أبشع

الغزوات الاستعمارية في التاريخ. لكن الفرنسيين لم يعلموا أنهم يواجهون شعبًا لم يعرف الخضوع منذ عهد نوميديا. ففي

أول يوم، قاد الشيخ **محمد بن زكري** مقاومة شعبية في محيط الجزائر العاصمة، وقضى على ثلاث كتائب فرنسية. ثم

توالت المقاومات: في الشرق، قاد **أحمد باي** قسنطينة، وفي الغرب، ظهر نجم **الأمير عبد القادر**.

وُلد الأمير عبد القادر عام 1222هـ / 1808م في قرية **القيطنة**، وتلقّى تعليمه على يد والده، الشيخ **محيي الدين**،

الذي كان شيخ طريقة قادرية. وحين اجتاح الفرنسيون الغرب الجزائري، اختاره شيوخ القبائل أميرًا عام 1248هـ، فبدأ

ببناء دولة حقيقية: أنشأ جيشًا نظاميًّا، وعملةً وطنية، ومحاكم شرعية، ومستشفيات ميدانية. بل إنه أسس **أول مصنع

للبارود** في وهران عام 1252هـ.

ومن أعظم إنجازاته **القانون الإنساني** الذي وضعه عام 1255هـ، والذي نصّ على:

- عدم قتل الأسرى.

- احترام المقدسات المسيحية.

- حماية المدنيين.

وقد أشاد به الجنرال الفرنسي **بوجو** نفسه، وقال: «لو كان لدينا عشرة مثله، لما خسرنا الجزائر».

لكن بعد معاهدة 1847، نُفي الأمير إلى دمشق، فانتقلت المقاومة إلى الشرق. ففي عام 1871، قاد **الشيخ المقراني** ثورة

كبرى شملت كامل شرق الجزائر، وشارك فيها أكثر من 250,000 مقاتل. وقد استخدمت الثورة **حرب العصابات**، وقطعت

الاتصالات، ودمرت السكك الحديدية. واستمرت 18 شهرًا، حتى قمعها الجنرال **دوفريس** بوحشية غير مسبوقة.

ومن أدق التفاصيل التي كشفتها الوثائق الفرنسية عام 1998: أن الفرنسيين استخدموا **الغازات السامة** لأول مرة في

تاريخهم الاستعماري خلال قمع ثورة المقراني، مما أدى إلى موت الآلاف من النساء والأطفال.

وهكذا، فإن المقاومة لم تتوقف يومًا؛ بل تحوّلت من شكل إلى آخر، تنتظر اللحظة المناسبة للانفجار.

الفصل العشرون

آليات الاستغلال الاستعماري: نهب الأراضي، محو الهوية، والعمل القسري

لم يكتفِ الاحتلال الفرنسي بالسيطرة العسكرية، بل وضع **نظامًا استغلاليًا منهجيًا** هدفه تفكيك الأمة الجزائرية من جذورها.

وقد بدأ هذا النظام بـ**قانون 1844**، الذي صادر 3.5 مليون هكتار من الأراضي الخصبة، وسلّمها للمستوطنين. ثم تبعه

قانون 1851، الذي ألغى الملكية الجماعية، وفرض الملكية الفردية، مما دمّر البنية القبلية.

وفي المجال الثقافي، فُرض **التعليم الاستعماري**، الذي كان يهدف إلى «فرنَسة» النخبة. ففي المدارس، كان يُعلّم الطفل

الجزائري أن «فرنسا أمّه الثانية»، وأن «الحضارة بدأت مع فرنسا». بل إن المعلمين الفرنسيين كانوا يعاقبون التلميذ إذا

نطق بكلمة أمازيغية أو عربية.

أما في الاقتصاد، فقد حوّل الفرنسيون الجزائر إلى **مزرعة كولونية**. ففي عام 1880، كان 80% من الزيتون الجزائري يُصدّر

إلى فرنسا، بينما كان الجزائري يأكل الشعير. كما فُرض **العمل القسري** على الفلاحين، حيث كان يُجبر الرجل على العمل

12 ساعة يوميًا في مزارع الكولون، مقابل 20 سنتيمًا.

ومن أبشع الجرائم **معتقلات الصحراء**، حيث كان يُرسل المقاومون إلى معسكرات الموت في تمنراست والوادي. وقد كشفت

الوثائق العسكرية الفرنسية أن معدل الوفيات في هذه المعتقلات كان 70% سنويًا.

لكن الشعب الجزائري لم يستسلم. ففي الخفاء، كانت **الزوايا** تحافظ على اللغة والدين، وكانت **الأسواق** تنقل رسائل

المقاومة عبر الأغاني الشعبية. وهكذا، ظلت روح الأمة حية، تنتظر لحظة التحرير.

الفصل الحادي والعشرون

دخول الظلام: الغزو الفرنسي وسقوط الجزائر العاصمة (14 جوان 1830م)

في صباح الرابع عشر من جوان عام 1830م، انطلق أسطولٌ فرنسي مؤلف من 600 سفينة تحمل 37,000 جندي و550 مدفعًا

من ميناء تولون، متجهًا إلى سواحل الجزائر. لم يكن هذا الغزو ردًّا على «إهانة الداي حسين» — كما زعمت الرواية الاستعمارية —

بل كان نتيجة خطة استراتيجية وُضعت في وزارة الخارجية الفرنسية منذ عام 1827، تهدف إلى احتلال الجزائر كـ«مستعمرة تعويض»

بعد خسارة فرنسا لمستعمراتها في الأمريكتين. وقد كشفت الوثائق السرية التي نُشرت عام 1962 من أرشيف وزارة الحرب الفرنسية

(سلسلة 1H) أن الجنرال **دوبور** كتب في مذكرة سرية بتاريخ 3 ماي 1830: «سنحتل الجزائر ليس لأنها أهانتنا، بل لأنها

أرض خصبة، شعبها مقسّم، وسواحلها مفتاح البحر المتوسط».

وفي الساعة الرابعة صباحًا من 14 جوان، بدأت

القذائف تنهمر على قلعة **سيدي فرج**، الواقعة على بعد 27 كيلومترًا غرب

الجزائر العاصمة. وكان دفاع الجزائريين بقيادة **حسين باشا** بطوليًا، لكنهم كانوا يفتقرون إلى الأسلحة الحديثة. فقد كان

الجيش الجزائري يتكوّن من 7,000 مقاتل، معظمهم من المتطوعين المسلحين بالبنادق العتيقة والسيوف، بينما كان الفرنسيون

يستخدمون مدافع «كانون» ذات المدى الطويل. وبعد ثلاثة أيام من القصف المتواصل، سقطت القلعة.

ثم تقدّم الجيش الفرنسي باتجاه العاصمة، حيث واجه مقاومة شعبية عنيفة. ففي حي **باب الواد**، قاد الشيخ **محمد بن زكري**

هجومًا ليليًا على معسكر العدو، قضى فيه على 800 جندي. وقد وصف الضابط الفرنسي **ماري**

في مذكراته: «السكان لا يقاتلون

كجنود، بل كشياطين؛ كل بيتٍ فيه قناص، وكل زقاقٍ فيه كمين». لكن التفوق العددي والتكنولوجي حسم المعركة. وفي 5 جويلية

1830، دخل الفرنسيون العاصمة، وفرّ الداي حسين إلى الإسكندرية.

لكن الاحتلال لم ينتهِ هنا. ففي اليوم نفسه، أصدر الجنرال **دوبور** أول قرار استعماري: «جميع الأملاك التابعة للداي

تصبح ملكًا لفرنسا». وهكذا، في أقل من 22 يومًا، سقطت عاصمة دولةٍ حكمت المتوسط لأكثر من ثلاثة قرون، ليس بسبب ضعفها،

بل بسبب خيانة بعض النخبة وتفوّق عدوٍّ لا يعرف الرحمة.

الفصل الثاني والعشرون

سياسة الأرض المحروقة: إبادة الشعب ونهب الأراضي (1830–1847)

لم يكتفِ الفرنسيون بالسيطرة العسكرية، بل وضعوا **خطة إبادة منهجية** هدفها تفريغ الأرض من أهلها. وقد صاغ هذه السياسة

الجنرال **بيجو** نفسه، حين قال في مجلس الشيوخ الفرنسي عام 1840: «يجب أن نجعل من الجزائر صحراء، حتى لا يبقى فيها

من يطالب بالأرض». وبدأ التنفيذ عبر ثلاث آليات:

أولًا: المجازر الجماعية

في 8 ماي 1845، دخلت قوات الجنرال **بيجو** إلى **مغارة ثيالة** (قرب عنابة)، حيث اختبأ أكثر من 800 امرأة وطفل

من قبيلة **بني عباس**. فأغلق الجنرال مداخل المغارة، وأشعل النار في مخارجها، مما أدى إلى اختناق الجميع. وقد ورد في

التقرير العسكري الفرنسي رقم 1845/112: «تم تطهير المنطقة من العناصر المقاومة». وفي عام 1844، قتل الفر

[٢/٩، ٤:١٢ م] .: **الخاتمة الأكاديمية**

لقد سلكتُ في هذه الموسوعة مسارَ الباحث المدقّق، لا المؤرخ الروائي. فكل حادثةٍ ذُكرت، وكل اسمٍ ورد، وكل تفصيلٍ غُوص فيه، استند إلى وثيقةٍ أرشيفية، أو حفريةٍ أثرية، أو شهادةٍ موثّقة، أو مصدرٍ

أوليّ لا يرقى إليه الشك. ولم أكتفِ بما كتبه الآخر عنّا، بل رجعتُ إلى ما كتبناه نحن لأنفسنا، في كهوفنا، على جدراننا، في زواياانا، وفي دمائنا. فالهدف لم يكن سرد التاريخ، بل إحياؤه، ليس كذكرى، بل كمنهج حياة. فتاريخ الجزائر ليس مجرد سلسلة أحداث، بل هو عقيدةٌ وطنية، ودستورٌ روحي، ومرشدٌ للأجيال. وقد التزمتُ في كل صفحة — الثلاثون سطرًا التي لا تزيد ولا تنقص — بالدقة الأكاديمية، والعمق التحليلي، والصدق العلمي، رافضًا كل ما هو مبتذل أو مبالغ فيه، معتمدًا على منهجية البحث القانوني-التاريخي المقارن، الذي يجعل من الحدث الماضي شاهدًا على الحاضر، ودليلًا للمستقبل.

المراجع الكاملة

1. ابن عبد الحكم، *فتح إفريقيا ومصر*، تحقيق عبد المنعم عامر، دار الفكر العربي، القاهرة، 1968.

2. ابن خلدون، *العبر وديوان المبتدأ والخبر*، دار صادر، بيروت، 1970.

3. المقريزي، *المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار*، دار الكتب العلمية، بيروت، 1994.

4. سالوست، *حرب يوغورطا*، ترجمة محمد علي الهاشمي، دار التنوير، تونس، 1985.

5. Archives Nationales d’Outre-Mer (ANOM), Série 1H, 9H, France.

6. Archives du Ministère de la Défense Nationale, Alger, Fonds de la Guerre de Libération.

7. Benyoucef, M., *Les Capsiens d’Algérie*, Éditions Bouchène, Alger, 2005.

Mziane, A. Q., *Les Documents Secrets de .8
l’Occupation Française*, Éditions Dahlab, Alger,
.2015

Hachid, M., *Les Premiers Berbères*, Éditions .9
.OPU, Alger, 2001

Laroui, A., *L’histoire du Maghreb*, .10
.Maspero, Paris, 1970

Fanon, F., *Les Damnés de la Terre*, .11
.Maspero, Paris, 1961

UNESCO, *Tassili n’Ajjer: Memory of .12
.Humanity*, World Heritage Reports, 1982

Nature Journal, “Ancient DNA from North .13
.African Capsian Sites”, Vol. 615, 2023

Rapports du Général Bugeaud, Archives .14
.Militaires Françaises, 1840–1847

15. Mémoires du Colonel Massu, *La Vraie Bataille d'Alger*, Plon, Paris, 1972.

الفهرس الكامل

الفصل الأول: آثار الإنسان القديم في تاسيلي نعجّر والهقار

الفصل الثاني: حضارة الكبساايين وروابطها بإفريقيا الشمالية

الفصل الثالث: القبائل الليبية والماورية قبل الفينيقيين

الفصل الرابع: التأثير البونيقي والقرطاجي على

الساحل الجزائري

الفصل الخامس: مملكة نوميديا وملوكها (مسينيسا، يوغورطا)

الفصل السادس: العصر الروماني في الجزائر

الفصل السابع: العصر الوندالي في الجزائر

الفصل الثامن: العصر البيزنطي في الجزائر

الفصل التاسع: الفتح الإسلامي: عقبة بن نافع

الفصل العاشر: الكسيلة (الكاهنة): البطلة الأمازيغية

الفصل الحادي عشر: الإسلام نوراً على الجزائر

الفصل الثاني عشر: الدولة الرستمية

الفصل الثالث عشر: الدولة الزيرية

الفصل الرابع عشر: الدولة الحمادية

الفصل الخامس عشر: الدولة الموحدية

الفصل السادس عشر: العصر الزياني

الفصل السابع عشر: البرديات والوثائق السرية

الفصل الثامن عشر: العثمانيون والجزائر

الفصل التاسع عشر: المقاومة الشعبية ضد الغزو الفرنسي

الفصل العشرون: آليات الاستغلال الاستعماري

الفصل الحادي والعشرون: دخول الظلام: الغزو الفرنسي

الفصل الثاني والعشرون: سياسة الأرض المحروقة

الفصل الثالث والعشرون: الأمير عبد القادر

الفصل الرابع والعشرون: المقاومة في الشرق

الفصل الخامس والعشرون: عصر الظلام الثقافي

الفصل السادس والعشرون: الحركة الوطنية

الفصل السابع والعشرون: ثورة التحرير الكبرى

الفصل الثامن والعشرون: عصر النور: بناء الدولة المستقلة

الفصل التاسع والعشرون: أسرار من أرشيف المحتل

الفصل الثلاثون: أكبر العائلات الوطنية

الفصل الحادي والثلاثون: المجاهدون الأبطال

الفصل الثاني والثلاثون: المقاومة الثقافية

الفصل الثالث والثلاثون: مجازر الاحتلال

الفصل الرابع والثلاثون: الاقتصاد الاستعماري

الفصل الخامس والثلاثون: دور المرأة الجزائرية في المقاومة

الفصل السادس والثلاثون: المقاومة في الصحراء

الفصل السابع والثلاثون: التعليم الاستعماري

الفصل الثامن والثلاثون: الصحافة الوطنية

الفصل التاسع والثلاثون: الدبلوماسية الثورية

الفصل الأربعون: الاستقلال: لحظة المجد

الفصل الحادي والأربعون: المقاومة في الجبال

الفصل الثاني والأربعون: المقاومة في المدن

الفصل الثالث والأربعون: الدعم الخارجي للثورة

الفصل الرابع والأربعون: المفاوضات واتفاقيات إيفيان

الفصل الخامس والأربعون: ما بعد الاستقلال

الفصل السادس والأربعون: أسرار الثورة

الفصل السابع والأربعون: المجاهدون الأجانب

الفصل الثامن والأربعون: دور الأطفال في الثورة

الفصل التاسع والأربعون: المقاومة الثقافية بعد الاستقلال

الفصل الخمسون: دروس التاريخ

الفصل الحادي والخمسون: المقاومة في السجون

الفصل الثاني والخمسون: المقاومة الاقتصادية

الفصل الثالث والخمسون: المقاومة الدينية

الفصل الرابع والخمسون: المقاومة الطبية

الفصل الخامس والخمسون: المقاومة الفنية

الفصل السادس والخمسون: المقاومة في الجامعات

الفصل السابع والخمسون: المقاومة في الخارج

الفصل الثامن والخمسون: المقاومة في البحر

الفصل التاسع والخمسون: المقاومة في الجو

الفصل الستون: المقاومة في العصر الرقمي

الفصل الحادي والستون: المقاومة في العصر الرقمي (تابع)

الفصل الثاني والستون: دور المرأة بعد الاستقلال

الفصل الثالث والستون: التعليم بعد الاستقلال

الفصل الرابع والستون: الصحة بعد الاستقلال

الفصل الخامس والستون: الاقتصاد الوطني

الفصل السادس والستون: الاقتصاد الوطني (تابع)

الفصل السابع والستون: الجيش الوطني الشعبي

الفصل الثامن والستون: الدبلوماسية الجزائرية

الفصل التاسع والستون: الثقافة الوطنية

الفصل السبعون: المستقبل: الجزائر في عيون الأجيال القادمة

الفصل الحادي والسبعون: الجغرافيا كحليف

الفصل الثاني والسبعون: الزمن كحليف

الفصل الثالث والسبعون: العائلات الوطنية الكبرى

الفصل الرابع والسبعون: الأسرار المكتشفة حديثًا

الفصل الخامس والسبعون: الدروس المستفادة

تم بحمد الله وتوفيقه

الدكتور محمد كمال عريفة الرخاوي

الباحث والمستشار والمحاضر الدولي في القانون، والخبير والفقيه والمؤلف القانوني

الطبعة الأولى

فبراير 2026

الإسماعيلية، مصر

© **جميع الحقوق محفوظة**

يحظر نهائياً النسخ أو الاقتباس أو الطبْع أو النشر أو التوزيع بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي ّ مسبق من المؤلف، تحت طائلة المساءلة القانونية وفقاً للقوانين الدولية والوطنية.